قاسم مسعد عليوه

وتر مشدود



وتر مشدود

قصص

قاسم مسعد عليوة

لوحة الغلاف للفنان : **عمر جهان**

الرسوم الداخلية للفنان · **عباس الطرابيلي**

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩ (نهاية القرن العشرين)

رقم الإيداع · ٢٠٥٣/ ٩٩

الترقيم الدولي :I S B.N977-291-141-8



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الالكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
الكيت كات - القاهرة ت : ٣٤٤٨٣٦٨

قاسم مسعد عليوة

وتر مشدود

قصص



الإهداء

إلى المؤرقين بقضايا العدل والحرية.

قاسم مسعد عليوة

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزةٌ . .

أى لحن تعزف سيدى الوطن ..

ولم يبق فى معزفك سوى وتر وحيد ..

وتر وحيد مشدود ..

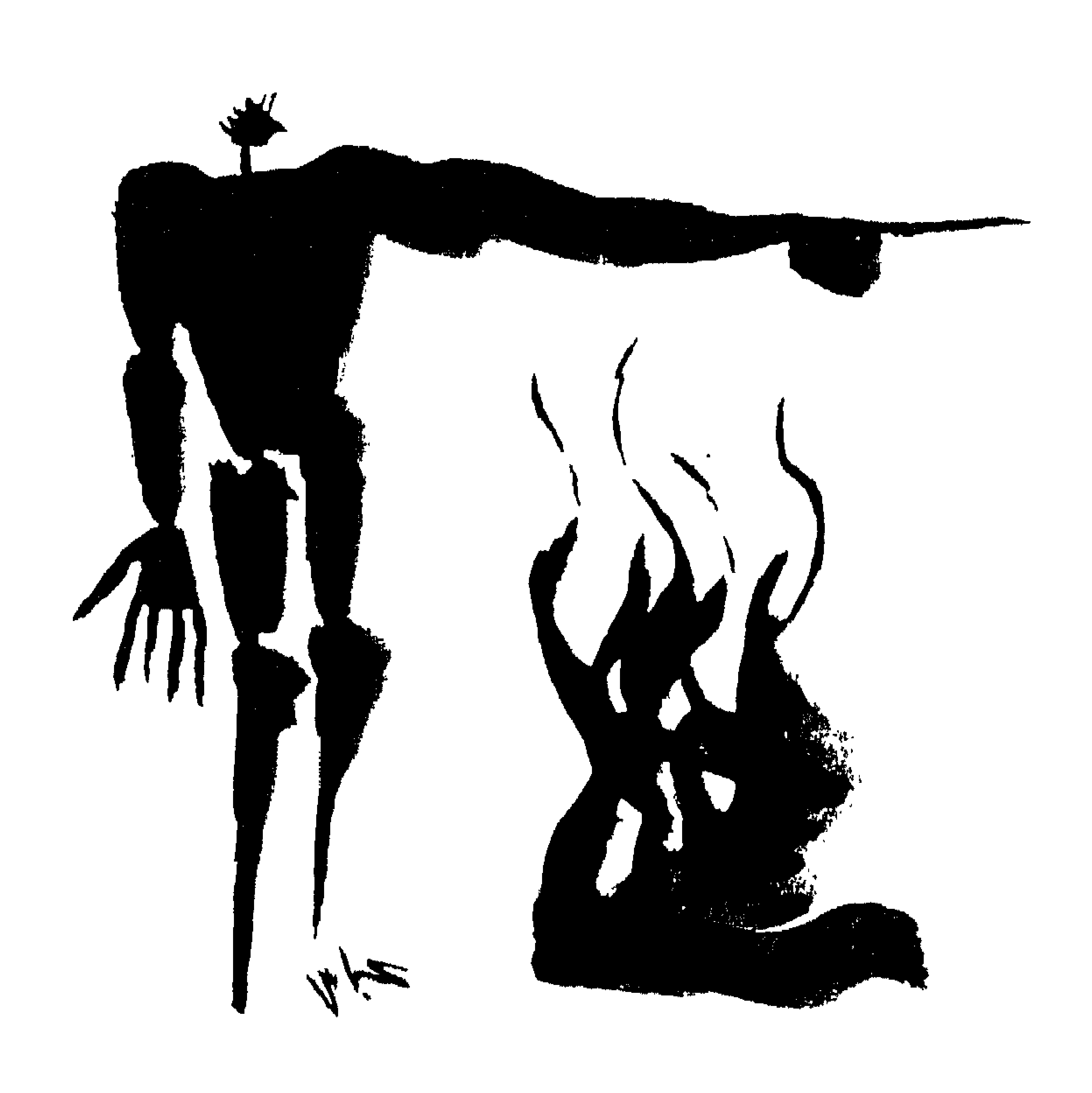
منه ينبعث النغم ..

لكنه - ياويلتاه - مهدد بالبلى .

ق . م . ع .

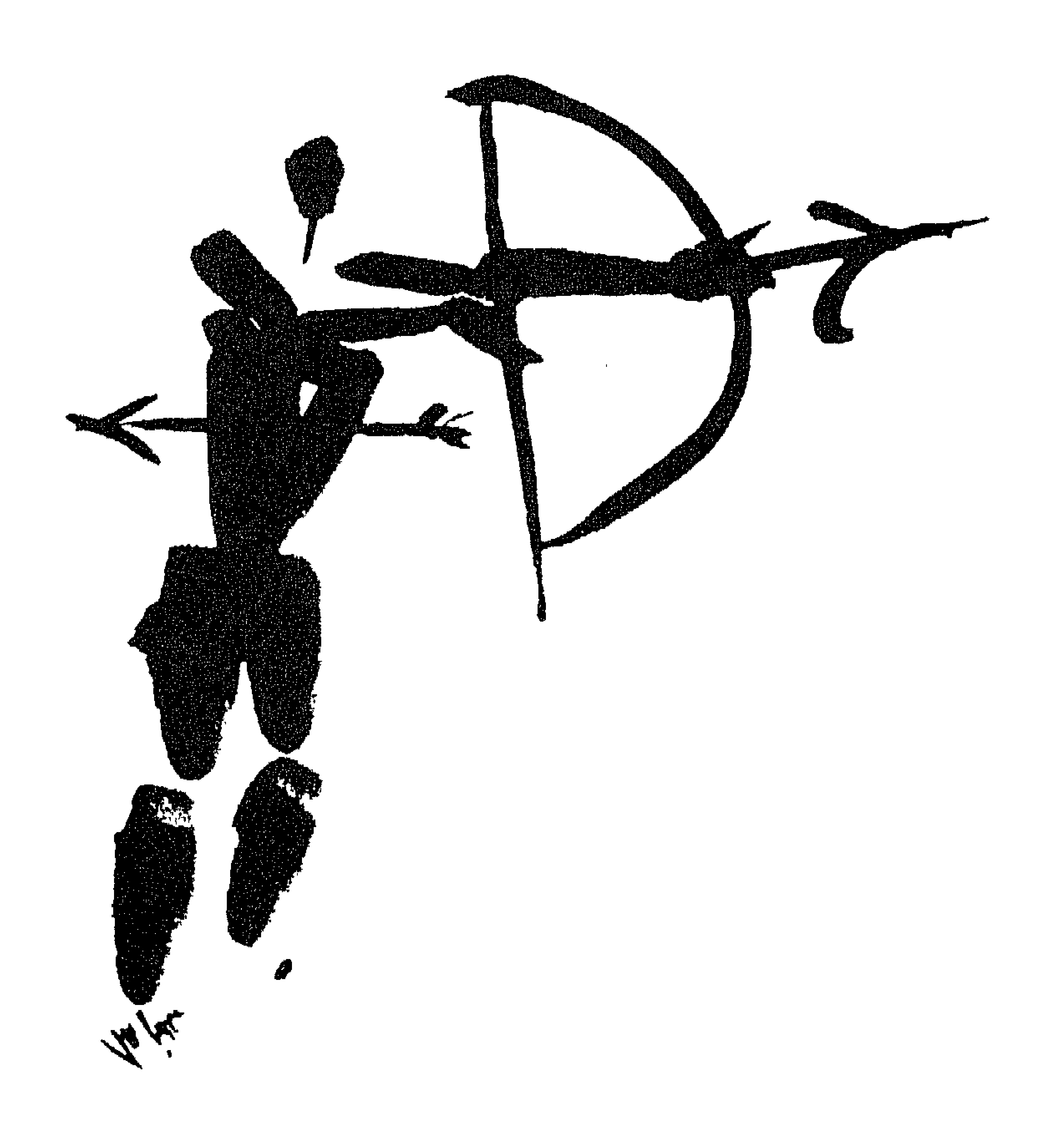
















يا من تبغي حَزَّ الوتر ..

ويلك .. أرْعَشْتَ النغم .

نشيد الفقراء

- ١ -

وكان أن جلستُ .

أدرتُ عينى فرأيته يهم باحتلال الترابيزة المجاورة . استدرتُ بكامل جسمى وصوبتُ نظرى إليه . تململ قليلاً ثم أخرج سيجارة ودسها بين شفتيه . فى البداية ، ظننته يتظاهر بالبحث عن كبريت ، لكنه انهمك فى تفتيش جيوبه .

أخرجتُ الولاعة من جيبى ورحتُ أعبثُ بها . هممتُ بمناولته إياها لكنى توقفتُ وطرقتُ بها الترابيزة .

صوَّبَ بصره إليها ثم رفع عينيه إلى عينى . لعله فكر فى طلبها ، لكنه لشىء ما تراجع . اهتزت السيجارة بين شفتيه ومالت لأسفل . عندما صفق فى طلب الجرسون قلتُ له :

- قل لهم أن يغيروك فقد حفظتك .

ثم نهضتُ فتلكأ قليلاً ونهض خلفى .

- ٢ -

قالت : كأنى مشبوهة . .

وضغطت على الكوب : . . فى كل مكان . . كل مكان .

ورشفتْ الشاى : لاأعرف . . لاأعرف ماذا يريدون . .

وعبثتْ بخاتمها : . . بالضبط . . لاأعرف بالضبط .

ونقرتْ بظفرها على حافة الكوب : . . حتى فى المرآة . .

وضحكت : .. وفى دورة المياه ..
ثم توسدتْ الترابيزة : .. إنهم فى كل مكان .
كان صوتها مرتعشاً وشعرها الليلىَ بدأ يهتز اهتزازات خفيفة :
ـ ماذا فعلنا؟ .. ماذا فعلنا؟
وارتفع نشيجها فنظر إلينا الناس .

- ٣ -

تراجع للخلف ثم وثب بقوة ودفع قدميه فى بطنى . أنهضونى . الشارع معتم إلا من التماعات النجوم على طفح المجارى . « أووه » . انهبد حذاء فى صدرى ، قصبة رجلى . دسوا فى فمى خرقة والتمعتْ دوائر معدنية حول الأصابع المضمومة ثم هوتْ على أنفى ، فكى ، صدرى . دار أحدهم حول نفسه ثم رفع ساقيه وذراعيه فوجدتنى فى الهواء ثم على الأرض . هوت ضربة على أم رأسى ثم جرونى وألقوا بى فى مياه الطفح .

- ٤ -

قال طبيب الاستقبال : أعرف ..
ثم شد رباطاً : فعلوها مع غيرك ..
ووضع شريطاً لاصقاً : .. بإمكانى إثبات الإصابات ، لكنك لن تفلح فى رفع قضية .
ثم مهر أوراقاً : .. سيأتى وقت نضربهم فيه ..
نظرتُ إليه مستطلعاً فابتسم : .. لستَ وحدك .. صدقنى .. نحن كثيرون .
وربتً على كتفى .

- ٥ -

ألقتْ بالملعقة : اهتم بنا .. بنفسك .. أنت محموم .

ثم لمستْ أصابع كفى السليمة : .. ابنك محتاج إليك .

وتراجعتْ بمقعدها : .. لاتُسمعنى نشيد الفقراء .

ثم انحنتْ إلىّ : .. فأرٌ حى أفضل من أسدٍ ميت .

وقامتْ : .. لستَ نبيا .

بكى الصغير فى فراشه فنشجتْ : لن تغير الكون .. أنت تحلم .. تحلم .

ثم انحنتْ على الصغير تُرضعه .

- ٦ -

نظر إلى الفاترينة وقال : ..اعتقلوا خمسة .

ناولته مسودة المنشور : ... هجموا عليهم فى الفجر .

رفعتُ حاجبى لامرأة عابرة : .. فى بيوتهم ..

نظرت لمانيكان المرأة الصلعاء وثوبها الشفاف : .. مطلوب منك صياغة منشور جديد .

انصرف فشدتنى قائمة الأسعار . كانت غالية ، غالية جداً .

- ٧ -

انقضا علىّ فوجدتنى تجاه الحائط وشيء صلب مثبت فى مؤخرة رأسى . جاست يد فى جسمى كله :

- أين المنشورات ؟

هززتُ رأسى فانغرس الشىء الصلب فى فروة رأسى .

- اثبت يا ابن الكلب .

– المنشورات .. قل .. أين المنشورات ؟

هوتْ قبضة على ظهرى :

– قل .. كانت معك .. لاتدّع العبط .. المنشورات ..

عندما صمتَ وسمعتُ مايشبه خبطة الذراعين بالجنبين ، هممتُ بالاستدارة ، إلا أن اليد الممسكة بالشيء الصلب تشنجتْ :

– لاتتحرك .

واقتادونى معهم .

– ٨ –

قالت : لن نستطيع العيش معاً .

وأخذتْ تجمع حاجيات الطفل .

– ٩ –

عبث الرجل المهم بإسورة قميصه :

– أَفْلَتَّ المرة السابقة .

ونقر على بللور المكتب :

– .. وتُفلِتُ الآن ...

وابتسم :

– .. أُهنئك .

ثم صرخ :

– لكنى احذرك ..

– أحذرك .. فاهم ؟

وأمر الحارس بإلقائى فى الخارج .

- ١٠ -

من بعيد لمحتها تمشى ومعها الطفل . هرولتُ منادياً عليها .لمحتنى فأسرعتْ الخطى واحتفتْ فى طريق جانبى .

- ١١ -

....

....

....

- ١٢ -

أحسستُ به خلفى فاقتحمتُ زحام الشارع ودخلتُ أحد المقاهى. ما إن جلستُ حتى رأيته يهم باحتلال الترابيزة المجاورة . صوبتُ بصرى إليه فتململ قليلاً ثم أخرج سيجارة، ومن أسفل سترته ظهر انبعاج الطبنجة .

(٢٤/٦/١٩٧٧م).

!!!

ـ ها ها ها .. ها ها ها .. ها ها ها

پوم .

برزت سنتان : الأوامر بتقول ..

غمرت وجهه أبحرة نتنة : ها ها ها .. ها ها ها .. ها ها ها .

پوم .

اتسعتْ العينان : .. فى الشارع لازم ...

تحركتْ القدمان . طراخ .

ـ أأأ ..

ضغطة شديدة على الصدر .

پوم .. پوم .. پوم .. پوووووم

ومااااات .

٭

ترلم .. ترلم .. ترلم لم لم . ترلم .. ترلم.. ترلم لم لم ..

« .. وها نحن أيها المواطنون نخرج عن بكرة أبينا لنرحب بالبطل المظفر ونقول له مرحباً مرحباً أيها الزعيم. .قلوبنا معك. .حياتنا فداك .. لك الغالى والنفيس. .لك المهج والأرواح.. مرحباً .. مرحباً .. مرحباً».

همسةٌ : إيه رأيك فى الراجل ؟

ردٌ : له مزاياه زى ماله عيوبه .

سؤالٌ : عيوب ؟

هزة رأس : مؤكد .
انحناءة: زى .. ؟
انتصاب : ميله الواضح ناحية اليمين .
هزة فهم : آآه ..
ثم هزة يد : بطاقة . حركة سريعة.
حزم: أنت مقبوض عليك.. ترلم.. ترلم .. ترلم لم لم .

.*.

دموعٌ : كنت غايب فين كل الشهور دى ؟
ضحكة فرح غامر : سياحة سريعة .
تحجرٌ : سياحة ؟!
صياح الأولاد وساقان صغيرتان تتدليان على صدره : آه ..
ثم دعابة غير واجبة : .. غريبة ؟
انفجار : يارجل ياهلفوت .. أولادك فقدوا فيك الأمل ..وقالوا مُت وانتهى الأمر .. فى الآخر تظهر وتقول إنك كنت بتسيح .. فى أى مصيبة كنت بتشبرق على نفسك ؟ .. قل .. انطق .
تسمر : فى سجون البر كله
شهقة .. (!!!) .. ضربة صدر .

.*.

« قلت لهم : أحتج بشدة »
وتحرك ملف .
« سألونى عن السبب » ..
وملف .

بإيه ؟ .. بصراحة الواحد معدش يآمن لحد، الشاى ياجرسون، العيون ياصاحبى بقت فى كل مكان، كلام فى سرك ، أصل بتوع اليمين عارفين إن المستقبل مش ليهم، ياجرسون :فين الشاى ؟ »

المحقق: « وأنه فى تمام الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة من مساء ذلك اليوم قال لجليسة بمقهى المونديال .. الركن الأيمن، الترابيزه الرابعة إلى يمين النافذة الثانية من النوافذ المطلة على نصبة المقهى ، فى ختام حديث مسهب ، مانصه : كلام فى سرك .. أصل بتوع اليمين عارفين إن المستقبل مش ليهم. ومرفق صورة فوتوغرافية لهما حال إتمام ذلك الحديث. واجهناه وسألناه:س .. ماقولك؟»

الرجل:« هه!!!»

٠*٠

– ياميلة بختك يانبوية، والله وقعت ومحدش سمى عليك،أظن ماحتقول سياحة؟

–أيوه، سياحة، قرف، نيلة، عايزة إيه؟

وكور أحد أبنائه قبضته الصغيرة ولكمه فى صدره .

٠*٠

يا أيها الناس ، اتقوا ناراً وقودها الفقراء والحجارة.. هه؟..آآآه .. لا .. لا.. بلاش الكهربة .. آآه .. أيها الفقراء .. أيها الفقراء ..

همم م .. ميعاد قفل الزنزانة لسه ماجاش ..آى .. الزيارةممنوعة ليه؟.

قلبى.. قلبى.. هه.. هاهاها.. هاأنتم ترون مايفعله اليمين بنا.. آى.. آى.. آآآى.

– ياراحل اصحى .. قوم .

- هه .. هم م م .. إيه .. فيه إيه؟

- الناس دول عايزينك .

- نعم؟ .. أى خدمة؟

-أنت مقبوض عليك .

•*•

« ياراجل تعبتنا .. اتهد بقى واسكت .. بتاكل باليمين وتشرب باليمين وتكتب باليمين ، والسطور بتبدأ باليمين .. وإذا حلف إنسان بيحلف باليمين . والمرور فى الشوارع من اليمين ، والتحية باليمين .. ضرب النار باليمين .. دخول الجوامع باليمين .. والإيد الجامدة هى اليمين.. يبقى ليه بتحارب اليمين؟ »

الرجل : لسه معرفتش؟

المخبر: ...

الرجل: تحب تعرف؟

المخبر: قوم ..فز .. إنت حاتصاحبنى ؟ .. انجر قدامى .. خش .. خش لحضرة الضابط .

•*•

محقق: « شوهدت أكثر من مرة تحيي الناس بإيماءة من رأسك..وبالمراقبة اتضح أنك لم تكن تقبل على مصافحة الناس .. وقد شوهد أحد الأشخاص وهو يمد لك يمينه مصافحاً ثم ردها إلى جنبه دون مصافحة و..

الرجل : (مقاطعاً) كانت دراعى اليمين مكسورة.

المحقق : « كسرتها متعمداً ، لذا أنت متهم بإحداث سقم بنفسك

بقصد استغلاله استغلالاً سيئاً ضد نظام الحكم»

الرجل: ؟؟؟ .. !!!

•*•

– إنت مين؟

– أنا بابا

– لأ .. إنت مش بابا .. إنت راجل عجوز .. حوشى ياماما .. راحل عجوز بيقول إنه بابا .

•*•

وقع أقدام .. التفات .. بدلة كاكية .

– أنت مقبوض عليك .

رحير .. التفات .. بدلة سوداء:

– أنت مقبوض عليك .

كحة .. التفات .. ثياب مدنية :

– أنت مقبوض عليك .

ضحكة:

– أنت مقبوض عليك ..

مقبوض عليك ..

مقبوض عليك .

•*•

الليل والأسفلت وحركة من الخلف . توقع العبارة المعهودة .. «أنت مقبوض عليك» .. التفت .. لاشيء .

ـهاهاها

كاد صماخ أذنيه أن يتفتت .

ـ مين ؟ .. مين ؟

ودار حول نفسه

ـ هاهاها

پوم .. پوم .. پوم..هذا الدق العنيف .. بعقله أم بقلبه؟ .. آه .. قلبه .. قلبه .. ضغط عليه:

ـمين؟ .. مين؟ .. مين؟

التفاتة سريعة للوراء .. يصطدم بشيء .. رحل .. شهق .

نحيل وقصير يرتدى ثوباً أسود فضفاضاً .

تراجع خطوة .. پوم.. پوم.. پوم.. التمعتْ الأزرار النحاسية لحظة ثم خبتْ. ترنح. ياقة سوداء خشنة ووجه نحيل لايكاد يرى . اربدت شفتاه:

ـم..م..مين؟ ..إنت مين؟

انكشفت فى الوجه الضامر عينان:

ـها ها ها .. ها ها ها .. ها ها ها ..

پوم.

برزت سنتان : الأوامر بتقول ..

غمرت وجهه أبخرة نتنة : هاهاها .. هاهاها .. هاهاها.

پوم.

اتسعتْ العينان:.. فى الشارع لازم ...

وتحركتْ القدمان . طراخ .

ـأأأ ..

ضغط على صدره بشدة

پوم پوم پوم .. پوووووم

وماااات .

•✻•

قال الشرطى ذو الوجه الضامر:

– أول ماشافنى مات .. مش عارف ليه .. دا أنا حتى كنت باضحك فى وشه .. كل اللى كنت عايز أعمله هو إنى ألفت نظره للأوامر اللى بتقول إنه فى الشارع لازم يمشى على اليمين .

(٢٦/٧/١٩٧٥م) .

الضحك

- ١ -

قال الرجل : الحياة أصبحت صعبة.

قلتُ : نعم.

قال : ومع هذا فمازال بإمكاننا أن نضحك.

قلتُ : نعم.. نعم ..

عندئذ جلجل بضحكة مبتورة ثم ضرب الترابيزة بقوة وأزاح ماعليها ثم نحى الجرسون جانباً ومضى فى طريقه .

- ٢ -

قال رئيسى : ستأتى فى المساء يعنى ستأتى ، لن أعطيك أجراً إضافياً أومكافأة ، لن أوافق على أية أجازات ، لكنك ستأتى . ثم أضاف إلى كومة الملفات كومة أخرى ولم أنبس ببنت شفة .

- ٣ -

لاأدرى متى أوكيف حدث هذا بالضبط . كل ماأدريه أننى عندما أحسستُ بالالتصاق وهممتُ بالاستدارة زام من هم ورائى واندفع أحد الملتصقين بالباب الخلفى لاعناً ذلك الذى يلتفت ويتحرك فى الوسط .

إذ ذاك اكتفيتُ بأن ملتُ بجسمى . غير أن المقعدة العريضة التصقت بى مرة أخرى . كان اهتزاز قد حدث فقلتُ ربما هو الاهتزاز .

استدرتُ نصف دورة غير مبال بالحركة الموجية التى ثارت ، ولابسيل

الشتائم المنهمر من ذلك الملتصق بالباب الخلفى . وإذ عم الهدوء وسكنتْ الحركة تنهدتُ متنفساً الصعداء ، غير أني بعد مويجة أخرى أثارها قاطع التذاكر فوجئتُ بنفس الطهر ونفس المقعدة . تحرجتُ وقلتُ لنفسى : لعله مثلى ضحية للزحام ، إلا أننى أحسستُ بإصبعين حذرين تعبثان بسوستة بنطلونى . نظرتُ . كانت يده . وما كان بوسعى إلا أن أدفعه بقبضتى بقدر مايتيحه لى الزحام . وفعلت ، إلا أنه – ولاأدرى كيف واتته القدرة – التفت إلىّ وجأر : عيب ياأستاذ . عندئذ انهالت علىّ اللكمات والبصقات ولم أتمكن حتى من إغلاق سوستة البنطلون .

– ٤ –

أحسست به خلفى . منذ خرجت من معرض الكتاب الذى أقاموه للمرة الأولى بمدينتنا وأنا أحس به خلفى . شىء ماجعلنى أتوجس منه خيفة . بالتأكيد ليس لصاً فمنظرى لايوحى بأننى من حاملى الأشياء ذات القيمة . قلت لنفسى : لعله من لصوص المنازل ويريد معرفة مكان بيتى . . فلأضلله .

بعدما اجتزتُ أكثر من نصف شوارع وحوارى المدينة وأصابنى التعب، نظرتُ ، فوجدته خلفى .

ماكان يحيرنى هو أننى لاأعرف سر تتبعه إياى . حدثتنى نفسى بالجرى، لكنى خشيتُ مغبة ماحدث لى بالأتوبيس . قلتُ لنفسى :

فلأخرج من ظلمة الحوارى إلى أكثر الشوارع ازدحاماً وأواجهه بسفور. أكثر من هذا عزمتُ على استخدام قبضتى إن استدعى الأمر.

ماأن توقفتُ واستدرتُ وهممتُ بفتح فمى حتى وجدته يختطف الكتاب من يدى ويأمرنى برفع ذراعى . نظرتُ إلى السلاح المشهر وإلى البطاقة التى أخرجها من جيبه وطرف الكتاب الملوى تحت إبطه وتبدد كل غموض .

- ٥ -

شدَّتْ شعرها وصرخت : هذا ماكان ينقصنا .. كتب وبيلة .. يارجل.. يارجل .. ألم تكن صحة أولادك أحق بثمن الكتاب وأجر المحامي والكفالة ؟ .. الكحة ستقتلهم .. ستقتلهم . ودفنتْ رأسها في الوسادة وراحت تبكى.

- ٦ -

قضم الجزار ضحكته وبرمية واحدة سمّر الساطور في القرمة ثم انحنى إليّ عبر البنك الرخامي وقال ببطء : ربع كيلو لحمة ياأفندى ؟! .. ربع كيلو؟! .. ثم مر على شاربه بإصبع جفتْ فوقه دماء الذبائح : الأجزاخانة الناصية الثانية .

ومن خلفى هبط سائق الكاديلاك وقال : خمسة كيلو لحمة واثنان كبده للبك .

- ٧ -

فى المقهى قلتُ لجليسى : الحياة أصبحتْ صعبة .

قال : نعم .

قلتُ : .. ومع هذا فمازال بإمكاننا أن نضحك .

قال : نعم .. نعم ..

فشلتُ فى اغتصاب الضحكة فضربتُ الترابيزة بقوة وأزحتُ ماعليها ثم نحيتُ الجرسون جانباً ومضيتُ فى طريقى .

(١٠/ ١/ ١٩٧٧م).

غبار كثيف
يروم النعاس على أهداب الوتر

- السبب
- العوامة
- سبع قصص من مدينة للاقتصاد الحر

السبب

تهدلت أجنحة اليمام فى عينيها وانطفأ البريق.

وقال رجل :« مومس». على البلاط كانت، طرية، حارة، كفاى تمرحان على جسدها ، وليونة اللحم تبعث فى أوصالى رعدة متشنجة . طوقتُ وجهها . قمر أخضر . عيناها مروج غير محددة الآفاق ، وثمة ارتجافات تحفيها أغصان الرغبة والرجاء .

قالت :« لا .. لاتفعل». وكانت شفتاى قد التقمتا شمتيها ، فانسرب صوتها مرتجفاً مكتوماً منهزماً :

« آه .. لاتفعل » . اعتصرتُ زهور الثوب فتأوهتْ :

« تحبنى؟ » .. دفنتُ وجهى فى لدونة النهدين:

« أحبك .. أحبك .. ولينهدم العالم » . وقال رجل: « مومس».

. * .

مابين السقف والأرضية تأرجحتْ عيناى . السقف مقوس ، أصفر ، متسخ . ثمة بقع متناثرة من بق متورم . بعضه يمشى بكسل قاتل . واحدة تسير هائجة متعجلة هبوط الليل . الأرض أسفلت محفور فى بعض المواضع ، والنافذة ملقاة تحت قدمىّ مربعات شطرنجية من ضوء كاب . أز الباب فاهتز ركود البول فى الجردل متآكل الحواف . زكمتنى رائحة النوشادر بينما انتصب فى مواجهتى السجان . مفاتيحه فى يد وفى الأخرى القايش. ورأيت نفسى مدفوعاً وسط آخرين إلى الممر فالسلم فالحوش وبالخيرزانات والقوايش أجبرونا على دحرجة براميل المازوت إلى المخبز وحمل خراء المراحيض بأيدينا .

• * •

قال بائع الصحف : « إنهم يقتلونكم .. بدأت أحس بهذا .. كل الكتب كل الصحف .. كلام فارغ .. كلام » .

• * •

هز ذو الكرافتة الزاهية والياقة المنشاة قلمه وعلّق بسمة المهنة على شفتيه : « حسن .. قل لنا عن أسمائهم » . « محام » .اهتزت البسمة ثم عادت أكثر اتساعاً وأقل اطمئناناً : « ماذا تقول؟ » . « محام » .

« هل تعنى؟ » . « .. أطلب محامياً » . « أنت مجنون .. النصوص فى جابننا » .« .... » . « لاتدع الصلابة » . « .... » . « مجنون .. ياعسكرى .. خذه .. غُرْبه .. غُر » . انصفق الباب فاستنشقتُ الهواء الطلق وسرتُ فى فيض الشمس وكف السجان تعصر زندى .

• * •

قالتْ : « جنيهان » . قلتُ : « أنا فقير » . قالتْ : « أنا أفقر » .قلتُ : « أكثر من نصف جنيه لاأستطيع » . قالتْ : « المعلمة لاتقبل أقل من جنيه » . قلتُ : « ألايمكنك التغاضى عن هذه المعلمة ؟ » .

قالتْ « إنها تؤكلنى عيشاً » . ودفعتنى عنها : « اذهب إلى أى دورة مياه وأرح نفسك » .

• * •

الأسفلت والمبانى الحجرية وحلكة الليل المتساقط فوق الأسطح زفتاً حاراً ودخاناً يخنق . يتورم النيون بثوراً بادية التقيح ، والصديد يهمى فيلطخ وجوه المارة ، والأبواق والعجلات وكسرات الخبز التى يجمعها طفل من تحت قدمى سكير مقهقه : « العالم .. العالم .. لينهدم العالم » .

*

«أنت السبب .. أنت السبب» . الأصباغ والدمعة المتحجرة .

«لا . .لست السبب» . وقال رجل : «مومس» . «أنت السبب» .

« . .وتؤلب عليّ الشغيلة ؟ .. أنت مطرود» . «مومس .. مومس» .

وامتدتْ يدٌ حانية : «فيم تفكر؟» . نظرتُ : «مؤكد أن شيئاً ما هو السبب .. مؤكد» . وقهقهت امرأة :«هاهاها .. مومس .. هاهاها .. مومس .. مومس».

*

أحكمتْ صاحبة البيت من لف طرحتها حول رأسها ثم انحنتْ على ظهرى العارى ووقعتْ الإيصال . وضعته تحت عينى لأتأكد من إمضائها .

«استلمتُ أنا الموقعة أدناه قيمة الإيجار المتأخر على . . . . .» . أدرتُ رأسي فربتت على وجنتي بدلال ثم انصرفت . خائراً ارتميت على السرير . ثقلها قَعَّرَ المرتبة ورائحتها متغلغلة فى كيس المخدة .. ثقيلة .. خانقة . عثرت على قطعة من ثيابها الداخلية فسحبتُ البنطلون ووثبت إلى الباب مرتبكاً . عجيزتها تسد باب السطح. ناديتها : «ياحاجة . .» . نظرتْ إليّ بتصاب فأوقفتُ يدى عن التلويح بقطعة الثياب : «ال . . .» . أسكتتنى : «فى المرة القادمة .. فى المرة القادمة» .

وتدحرجت صوب السلم .

صاح ديك الفجر وضرب بجناحيه ، ومن ورائه بيوت الحى أقفاص ينام فيها الناس ويقرقرون . وفى الخلف ، الخلف تماماً ، تسامقت عمارات الحى الراقى ترقب دجاجات حينا خشية فرارها .

كنت منهكاً ، وكان العرق يتصبب منى ، لكننى اندفعت إلى السور وسحبت البنطلون وطفقت أبول على العالم .

. * .

اهتز جردل البول ودخل المأمور . قال :« اعترف يابنى أفضل لك » ، فقلت : « مضى شهران ولم أدفع لصاحبة البيت الإيجار » .

. * .

فى أحقر خمارة تسمرت عيناى عليه . كهل ؛ بائس ، رث الثياب . مد كأسه نحوى بيدين ترتعشان وفَجَّرَ ضحكة مهزوزة ، كئيبة ، ذليلة .. كالبكاء . دهمنى الخوف . عيناه رماديتان منطفئتان . قلت بجفاء : « ألم تر رجلاً ساخطاً ؟ » . اعترت وجهه اختلاجة عنيفة ، صمت طويلاً ، ثم تجرع كأسه وأدنى رأسه منى : « فيك شىء طيب » . « لست طيباً .. أنا صعلوك .. أزنى وأستدين وأرتاد الخمارات القذرة » . « هه..هه..هه .. لكنك شاب » . ومد يده عبر الترابيزة وأمسك برسغى . آلمتنى قبضته فحاولت التملص .. قلت : « أنت تخيفنى » . قال :« اسمعنى .. أنت شاب .. إن لم تلحق نفسك تحولت ببطء إلى دودة ضجرة .. قذرة .. حقيرة (ثم سكت) مثلى » . وعاد يفجر ضحكته الكئيبة.

لما جمعتُ شتاتى واستنطقتُ لساني : « ماذا تقصد ؟ » كان قد ألقى برأسه إلى الترابيزة واستغرق فى سُبات له غطيط.

. * .

دهمتنى رائحة نفاذة. رائحة أعرفها. تركتُ البُرش ونظرتُ فإذا ببقعة دم وأشلاء بقة متفجرة الأحشاء.

•*•

القمر وجه مخنوق. تنتفض فيه عروق زرقاء. والنافذة مربعات صغيرة يندلق منها الصهد والناموس. «يا٤٨.. يا٤٨». هه!! «يا٤٨». إنه أحمد. أتسلق قضبان الكوة التى تعلو الباب. عبر الممر وأربعين زنزانة متقابلة يأتينى صوته. «يا٤٨». «نعم يا٣». «لا أسمعك». أتشبث أكثر بالقضبان. أدس إبهام إحدى القدمين فى ثقب الباب. الأخرى معلقة فى الهواء. أرهف. «أنا معك يا٣.. أنا معك». «ماذا فعلتَ؟». «طلبتُ محامياً». «ماذا؟.. لا أسمعك.. يا ٤٨.. ارفع صوتك» «طلبتُ محامياً».. محامياً.. طلبتُ محامياً..». «محام؟». «نعم». وارتفع صوت السجان: «اسكت يابن الكلب أنت وهو».

•*•

ذرة الرمل تحت عينى فى حجم البرتقالة، وجير الحائط مخضب برشاش الدم المتدفق من أنفي، بينما أيدينا مقيدة من خلاف، والحزام الحديدى يحصر الخصر والثقل مُدلى بين الساقين، وضحكات السجان تشرخ ظهرينا: «هاهاها.. تطلبان الشمس؟.. هيء هيء هيء.. اشترياها إذن.. الحساها»، ثم أدارنا بعنف وأمرنا بأن نجرى بأثقالنا.

•*•

«حتى لاتقولى أننى السبب أعرض عليك الزواج».

«....»

أظننى بهذا أُصلح غلطتي».

«.....»

«.. مارأيك؟»

« . . . ».

« . . قولى شيئاً ».

« . . . »

« . . . ».

« . . قولى شيئاً ».

« . . . »

« تكلمي ».

وفجرت ضحكة فاجرة: « هاهاها.. لا.. لن أتزوجك». وأجهشتْ بالبكاء.

•*•

أدور فى حجرتى الحقيرة. أدور. أضرب كل شيء. أركل كل شيء. لاأدرى ماذا أصابني. فلأحطم كل شيء.. كل شيء.. القلم.. المرآة.. الترابيس.

«إنهم يقتلونكم».. وأفقت على نفسى منهاراً فوق الحصيرة وصوت بكائى يعلو ويهز زجاج الشباك المغلق.

الشمس خنجر يبقر بطن السحب وبطون الأشياء، والدم خيوط رفيعة تسيل عبر تضاريس الجلد الباهت، ولسان الكرباج يفرقع فى الهواء بين ارتفاع وهبوط.

« السبب؟.. حقيقة لاتعرف السبب؟ ».أتشبث بكفه الممدودة: « فعلاً ياأحمد.. فعلاً». دوت صفارة المصنع القريب فاندلقت من باب صغير الوجوه الشاحبة الممصوصة وتفرقت فى الطريق بينما وقفت عربة فارهة أمام الباب الرئيسى ومن شباكها أطل رأس كلب تُمسك به يد رخصة مثقلة بالحلي. قال أحمد: « عربة صاحب المصنع.. فهمت؟ »، وهبط الكرباج فشق وجهه.

•✱•

« أنت مقلق.. اعتبر نفسك مرفوت ».

وتراصت وجوه العمال. ارتفعتْ عيونهم لوهلة ثم نكست. خضلت دمعة شاربا كثا. التمعت ثم خبت. وامتد نثار الدم من ترس الآلة إلى الباب عبر بقع الزيت ومخلفات التصنيع والأحذية المتشققة. وفى الخارج ولولت النساء فوق جثة الزميل.

« وتؤلب على الشغيلة؟.. أنت مطرود ».

« أنت مشاغب.. لاعمل لك عندي ».

« لاعمل عندي ».

« لاعمل ».

وتهدلت أجنحة اليمام فى عينيها. زَمَّتْ شفتيها ولم تتكلم. « تعرفين السبب.. هه؟.. تعرفينه.. قولى إنك تعرفينه.. قولي ». وامتدت أكفهم تمزق عن ظهرى القميص وتقودنى إلى حيث العروسة والكرباج، بينما ألقى بعضهم بأحمد كتلة مهشمة أسفل الجدار.

(١٥/١٠/١٩٧٥م).

العوامة

اقتعدتُ أرضية الأنتريه أنا وزوجتي. أمامنا أكواب الشاى الفارغة، ومن حولنا يتواثب سميح فوق الأرائك ، بينما انهمك شادى فى افتعال معركة وهمية بين دميتى النمر والصقر . ومن التليفزيون يأتينا صوت الكهل «برنابى جونز» إذ يجتهد فى أداء دور الأمريكى النابه .

رنَّ الجرس فنهضتُ إلى الباب ليدخل أخى القادم من إحدى إمارات الخليج مخفياً ذراعيه وراء ظهره. أطلق صيحة عظيمة وأظهر ماكان يخفيه. التفت الولدان وأمهما إلى مانُشر فجأة تحت أعينهم. كيس بلاستيكى صغير افتضه فأخرج شيئاً بلاستيكياً آخر. قلت: «لعلها بالونات أطفال أولعبة من النوع الذى ينفخ». لكنها كانت مطوية.

تشعبط بذراعيه الولدان وصاح الكبير: عمو.. عمو.. بينما لم يجد الصغير وسيلة للتعبير عن فرحته بما فى يد عمو سوى الثأثأة مما جعل أخى يقهقه ويسرع بالكشف عن خبايا مفاجأته. كما توقعت، أخذ ينفخ فيها فتتمدد أمام أعيننا عوامة كبيرة ضخمة. تواثب سميح وشادى عليها فراح يراوغهما كيما يحكم إغلاق فتحة النفخ. ما أن فعل حتى ألقى بها أمامهما كبيرة.. مغرية.

صاح: أمريكية الصنع.. مئة بالمئة.

قالت زوجتي: أنت هكذا تأتينا بالأشياء ذات القيمة. ثم جمعتْ أكواب الشاى وضمتها إلى بعضها البعض.

– لو قال له الأولاد (وأشارتْ نحوي) إنهم يرغبون فى عوامة لأتاهم

بكاوتش عربة قديمة، كثير الثقوب، كثير الرقع.. تضاحكتُ وقد ضايقني لمزها.

- .. ولن يعدم وسيلة لإثبات فضل الكاوتش ومتانته، والاستهلاك ومضاره، والصناعة المحلية وضرورة حمايتها.

ضحك أخي بطلاقة وإن ضَمَّ حاجبيه فيما يشبه التقطيبة. عندما جلس نهضتْ هي لتُعد له فنجال القهوة بالطريقة التي يحبها.

*

من الطبيعي ولدينا عوامة بهذا الحجم أن نذهب إلى البحر. من الوهلة الأولى فرضتْ عوامتنا نفسها. فبالرغم من زحام الناس تحت الشماسي وفي قلب البحر، وبالرغم من تناثر مراكب التجديف والمراكب الشراعية ذوات الألوان الزاهية وبالرغم من وجود عدد لا بأس به من العوامات، إلا أن عوامتنا جذبت اهتمام الجميع.

لاأعرف السبب. ربما لألوانها، فالأزرق والأبيض متوازيان والنجوم متزاحمة في الركن، وربما لضخامتها غير المألوفة، أولأن «الكحكة في يد اليتيم عجبة». هكذا قالت زوجتي وهي تشير إلى الشاطئ والعيون المتجهة إليها. غير أنني لم أكن متشيعاً تماماً لها. صحيح أنني تمنيت أن يسعد بها ولداي، إلا أنني لم أشعر بكل هذا القدر من المباهاة الذي تشعر به زوجتي، حتى أنها أشارت إلى عوامة سوداء هي أصلاً كاوتش عربة وقالت: انظر هذا الجرب. ثم أشاحت بوجهها وآثرت النظر إلى عوامتنا. للحقيقة، منظرها فوق سطح الماء بين زحام الأولاد، الذي تحلقوها بفضول، رائع.. فعلت بسميح فعل السحر. فها هو يخوض ماء البحر غير هياب بعدما كان صراخه إذا ماحاولنا تقريبه من الشط يصل إلى قبرص وما بعدها. الأدهى أنه أرقد شادياً، الذي لايعرف شيئاً، في قلب العوامة

وأخذ يجرها يميناً ويساراً ويدفع الأولاد بذراعيه الناحلتين ويشتم كل من يحاول الاقتراب، حتى أننا اضطررنا للصياح به أن يكف عن التفوه بهذه الألفاظ القبيحة. قلت لها: هاهى أولى بركاتها.. علّمت أحد ولدينا كيف يكون بذيئاً.

فجأة، جرَّ سميحٌ العوامة إلى رمل االشاطئ. أنزل شادياً وجرى بها نحونا، وشادى من خلفه يتعثر فى الرمل: بابا.. بابا.. العيال...

كان هذا كافياً لنعلم أنهم يريدون امتطاءها. قالت زوجتي: من يلمسها اضربه. ثم حثته على العودة بها وبأخيه إلى البحر، فعاد إلى مكان غير مزدحم وألقى بها ثم حمل شادياً وأرقده بداخلها.

قالتْ: حلّت هذه العوامة مشاكلنا. ضحكتُ. قالت: ماذا يضحكك؟. لما كان الأولاد قد عادوا وتحلقوا العوامة وسميحاً وشادياً فقد قلتُ : هاهى المشاكل قد بدأت.

قالت: ماذا تعني؟.. أشرتُ إلى الأولاد الذين بدأوا فى جذب العوامة من يد سميح، على الفور وثبتْ من مقعدها ولملمت أطراف ثوبها واقتحمت البحرْ بيديها ولسانها . فَرَّقَتْ المتزاحمين ولم تعد إلى الشمسية إلا بعدما استقر لسميح وشادى الأمر.

تنهدتْ: يجب أن نحافظ عليها. واستلقت تحت المظلة، غير أن الأولاد عادوا إلى العوامة وجذبوها بشدة، فانقلبتْ وسقط شادى فى الماء وصرخ سميح فانقذفنا من مقعدينا وتواثبنا من فوق الأجساد المستلقية على الرمل وخضنا فى الماء بثيابنا.

انتشلتُ شادياً قبل أن يغرق، بينما جرَّت هى العوامة ممطرة الأولاد بكل مافى الدنيا من لعنات.

ألقتْ بالعوامة على الرمل وصرخت فى سميح: العب بها هنا. وقلت ثانية : مصائبها.. كادت تُغرق ولدنا الصغير.

زفرتْ: بعد الآن لاتأت بنا إلى شاطئ هذا الحى المقرف ثم ربتت على خد شادى الذى أفرغ ما بجوفه من ماء وطعام:.. نذهب إلى شاطئ حى الإفرنج.. الأولاد هناك مستواهم راق وشبعون و....

أضاعتْ صوتها فرقعة شديدة جعلتنا ننظر إلى العوامة لنجدها ترتفع فى الهواء وسميحاً ينظر إليها فاغراً فاه. تتبعناها، وعيون المستلقين على الرمل معنا، وهى ترتفع وتنحرف فى الهواء حتى كدنا نشك فى إمكان هبوطها إلى الأرض، لكنها سقطت على مبعدة، جرى إليها الأولاد مهللين.

متكاسلاً نهضتُ إليهم وعدتُ بها. قلّبتهُا فإذا بقطعة كبيرة منها تشرشبت. بسهولة تبينت السبب. سخونة الرمل. قلتُ: هاكِ ماكنتِ تتباهين بها.. لم تتحمل حرارة الشمس.

اختَطَفَتها: أرني.. سأصلحها.

- لن نستطيع.. لا أنا ولا أنت ولا أمهر لحام فى الدنيا.

- أنتَ هكذا دائماً مع مثل هذه الأشياء.

ولم أُخف سعادتى ودهشتى لأن ولدى لم يبكيا.

(١٩٧٧/٨/١٧م).

سبع قصص
من مدينة للاقتصاد الحر

١- سياحة:

رفض التاجر السعر الذى قدرناه لصينية الشاى فتركناه وانصرفنا.

قالت: لو عندهم نظر لعرفوا أننا لن نشترى بأسعارهم.

فابتسمتُ.

قالت: ماما كانت ستفرح لو فاجأتها بها (وسكتتْ) يسلخون جلودنا.. نعم يسلخون جلودنا (وضحكتْ) كما لوكنا سائحين (ثم التصقتْ بي) مابك؟

فأشرتُ لمشعوذ يبُخر مجموعةمن المسجلات. أطرقتْ: نحن بالفعل سائحون.

٢- ريبورتاج:

قالت: أنت ابن البلد.. بالتأكيد سأخرج بموضوعات مثيرة.

ثم هزتْ الكاميرا وانسلخنا عن المجموعة.

قال الرجل: تسعة ياست هانم.

وعرض علينا خمسة. أصغرهم دائم المراوغة.

ـ.. الباقى لا أعرف أين ذهبوا.

ثم صرخ فى زوجته: ياولية.. البلد امتلأت بالعربات وعيالك عفاريت

وجذب أحدهم: ياابن الهرمة.. الخشب ليس للأكل.. إرم.. تف.

سألتْ رفيقتي: لكن.. كيف.. كيف تنامون في هذا الـ.. هذا الـ.. الـ.. جحر؟

زامت الزوجة والقتْ بالغسيل في الطشت، ثم رشقتنا بنظرة قاسية.

-... والحمَّام؟.. أنا لاأرى حمَّاماً ولا..

أسكتها بروز الصغير من خلف الحشايا المكومة حاملاً وعاء لقضاء الحاجة.

صرخ الرجل: ارجع ياابن المركوبة.. ارجع.

لكنه أسند الوعاء إلى صدره بيد ودفع الأخرى فيه.

اندفع نحوه مزمجراً: اصرخى فى ابنك ياولية.

غير أنها كانت مشغولة بالتحديق فينا.

رواغه الصغير وهرول متعثر الخطى صوب أمه. ما أن سقطت الكف الثقيلة فوق كتفه حتى سقط الوعاء واندلق مافيه على الأرض وساق الأم العارية وفاحت الرائحة:

- ياابن الكلب.. يابنت الكلب.. ياأولاد الكلب.. فضحتونا.

لم تتمالك رفيقتى فتقيأتْ، وفى غمرة اضطرابها تلوثت الكاميرا.

٣- علاقات عامة:

خرج المحافظ إلى السوق. وسط رجاله يمشى مترجلاً. يوزع ابتساماته وتقطيباته بحساب. مصور العلاقات العامة يتقهقر بظهره، وحبات من العرق منعقدة على جبهته. تكات آلته تفرض نفسها على لغط المتجمهرين. إلى جوار المحافظ رئيس تحرير الصحيفة المحلية. يزاحمه مدير المكتب الفنى ومدير التموين. فجأة وجدوها وسطهم بالتمام.. بالتحديد فى مواجهة كبيرهم. عجوز. لايميزها عن نساء البلدة شيء. ترتدى

السواد مثلها مثل من هن في سنها. قالت: ابني.. ياسيادة المحافظ..

هم بالتوقف، لكنهم أشاروا إليه بالمسير.

-.. جاءوا بالليل وأخذوه.. قلّبوا البيت وقطّعوا المراتب وأخذوه.

- .. يقولون إنه قال كلاماً..

-.. لا أعرف أين ذهبوا به يابك.

-.. الله يعمر بيتك ياسعادة المحافظ..

وتعلقت بسترته فشدها مدير الأمن:

- امش من هنا ياولية.. امش.

توقفتْ، فيما استمر الموكب في سيره، وعاد المصور لعمله.

٤- حادث بسيط:

«كل الأماكن مشغولة.. كل الجناين والخرابات..حاجة تقرف.. ارمى الخوف من نفسك.. أمك بنت كلب.. خالى ابن ستين كلب.. كل الناس فى العالم كلاب أولاد كلاب.. يامرار الفلوس يامرارها.. أمك غول فلوس.. خالى مفرمة بنكنوت.. والفيران فى بلدنا ملوك.. اضحكي.. دوسى على الدنيا.. اتفوه.. فى جيبى جنيه.. اعتبريه من نصيبك.. والنبى من نصيبك.. بس تعالي.. البحر فاضي.. لاصيف ولاشماسى ولايحزنون.. وراء الكبائن.. لا من شاف ولا من دري.. تعالي.. تعالي»

......

......

دهمهما الشرطى فدراى عريها بعريه، غير أنه تلقى ضربة الهراوة فتكوم أسفل ساقيها. من فوره تلون وجه الشرطى بابتسامة غريبة وامتدت أصابعه إلى الحزام وأزرار السترة والبنطلون تفكها جميعاً.

٥ - كباب :

كم حجر معسل دخَّنه؟.. لاأعرف. لكنى ابتهجتُ عندما كف عن مص مبسم اللىّ وأعطى الجرسون رزمة الجنيهات مشيراً إلى دكان الكبابجي : هات كيلو كباب وحَبشْ السلطات. أكلتُ كما لم آكل من قبل. حمدتُ ربنا وبستُ يدى وش وظهر. قلت: كل ما تقوله سأفعله. قال: كل مهمتك أن تقف وتراقب.

أدهشنى بقدرته.. شُجاع ولهلوبة.. فتح البوابة بمفرده. غاب فى عتمة المحل بمفرده والتليفزيونات نقلها إلى السيارة بمفرده. وبمفرده أيضاً مشى بعدما أشار إليّ بالانصراف.

فى المقهى، عاود التدخين. كم حجر معسل دخنه ؟.. لاأدري.. لكنه عندما كف عن مص مبسم اللىّ وأعطى الجرسون رزمة الجنيهات فركتُ كفى فرحاً، فمرة أخرى سأعود إلى أكل الكباب.

٦ - العمارة الجديدة

كعادتهم فى هذه الساعة من كل يوم، يهبطون من المعدية بدراجاتهم وملابسهم ووجوههم المبقعة بالزيت والشحم. يركبونها فور استلامهم الأسفلت، ويمشون فى الشارع المزدحم بالبارات والبازارات ومكاتب الصرافة. البواخر الراسخة والعابرة فى الخلف، ومن ورائها ورش الترسانة التى تبتلعهم فى الصباح وتلفظهم فى العصر. وبيوتهم هناك.. فى الغويط البعيد.. فيها الميه والصابون.. فيها النساوين والعيال واللقمة الساخنة والفرشة الدافية.. بعد بار «سيسل» بخمسين متراً.. ربما أكثر أو أقل قليلاً.. إلى اليمين من إشارة المرور التى لايتوقفون لها أبداً ارتفعت العمارة الجديدة.. فوق.. فوق.. اثنا عشر طابقاً.. خزانات مياه «ودِشات» تليفزيون.. نعم.. خزانات مياه و«دِشات» تليفزيون..

كم؟.. عدها.. العدد في الليمون..

ياااه (!!).. كل هذه مكيفات؟.. تحت كل شباك جهاز.. كم شباك؟.. عد.. ثلاثون... خمسة وثلاثون.. لا.. لا.. أكثر. نسيت هذا الجانب... ياااه (!!).. وسقطا بدراجتيهما فارتبك موكب الدراجات واربدت الملامح الملطخة بالزيت والشحم. تناثرت بعض الشتائم وبعض النكات، ثم عاد الموكب فالتأم، فيما ضبط الاثنان مقودي دراجتيهما ولم تفتهما معاودة التطلع إلى العمارة الجديدة.

٧ - اغتصاب:

وحينما أتعبها اللهاث، وطُرحتْ أرضاً، وأُجبرت على فتح ساقيها، اخترق أذنيها رنين معدني. نظرتْ باتجاه البنطلون الملقى لتوه وفتحة الجيب المائل نحو الأرض وأغمضتْ عينيها لما رأتْ دولاراً يجرى ويدور ويلف.. يدور ويلف.. يلف ويلف.. يلف...

(١١/١١/١٩٧٨م).

أيهذا الوتر..
لاتدمينا حشرجة وأنينا

- ليلي
- القصور
- مشاهد من حالة يقال إنها خاصة جداً

ليلي

إليك ياليلى.. ياأملى المورق بالعطاء الواعد بالإثمار.

-١-

أراكِ ليلى فى كل شيء. أراكِ نهاراً. أراكِ ليلاً. فى ركن الزنزانة، فى سقف الزنزانة، فى قلب الزنزانة، وفى حزم الضوء النافذة من عقب الباب الصلد.

وهناك.. حيث تلوح تلك المساحات الزرقاء المبعيدة.. أراك تأتلقين نوراً أثيريا وسناً.

أناديكِ: ليلي..

فتبسمين وتفتحين لى ذراعين حانيتين: ليلى..

والمح الزغب المبهر يتلألأ فى فوديك. تمدين غصناً فأتشبث به: ليلى.. إنى آت.. ليلى.. أنا حر.. حر.

-٢-

هبطنا إلى الحوش. السور والأسلاك الشائكة والسحب الرمادية. من البرد يحتمى السجناء بالجدران. يتسربلون بالرمادى ويدسون أكفهم تحت آباطهم. بلون التراب يتنطع الحراس. إلى حائط الكانتين استند وفى الداخل يحتسى الزملاء شاياً مرا ويقايضون بالسجائر. سُئلتُ:

– فيم تفكر؟

– العالم..

– العالم وعناء التفكير صنوان.

ومر السائل تاركاً لعينيَّ البصاق والنعال الممزقة، وبقايا ظل تهرسه الكعوب العابرة. اقتربت ساقان رماديتان. المقدمان حافيتان ورباط مدمم يلف أصابع إحداهما. رفعتُ عينيَّ إلى السترة.. بالية. إلى الوجه.. ممصوص. الطاقية بلا لون. ظننته سيمضي ببؤسه، لكنه سأل:

– ماتهمتكم ياأخ؟

– الرغيف.

– إه (!!).. الرغيف؟!.. مجانين.. الرغيف؟!.. هيء هيء.. الرغيف هيء هيء هيء.. الرغيف.. هيء هيء هيء هيء.

– ٣ –

تلقفتِ رأسى المتعب براحتيك ودفنته فى دفء صدرك. قلتِ لي:

– لاتيأس.

وقلتُ لك:

– لن أيأس مادمت معي.

فقبلتنى ودثرتنى بغطائى الوحيد، ومن الركن أحسستُ بالزملاء يتساءلون عن سر هذا الذى تركهم ونام. وماكنت نائما، إنما كنت أفكر فى متناقضات العالم الذى نعيشه.

– ٤ –

«أنا قتلتُ رجلاً زانياً. حكموا عليّ بتأبيدة. وقضية هذا القميء مخدرات. سبعة عشر عاماً. وهذا نشال. عامان. وقضية هذا الوسيم دعارة. وهذا عميل للعدو. هتك عرض. شغب. اختلاس. نصب. تعدي. حادثة سيارة. هجّام. سكر وعربدة. قمار.. وأنتم؟»

– سياسيون.

ـ أقصد ماذا فعلتم؟

وأملتِ رأسكِ البديع ياليلي، ورحت تقرأين معى اختلاجات وجوههم إذ يتحلقوننا ويستمعون.

ـ ٥ ـ

ـ فى خدمتكم يا أستاذ.

ـ هذه الرسالة..

ـ عينى لكم ياأستاذ.

ـ .. والحراس؟

ـ تخصصي.

ـ قد تسقط فى أيديهم.

ـ رقبتى قبلها يا أستاذ.

وانصرف مصطحباً أول بيان نرسله من وراء الأسوار.

ـ ٦ ـ

ماكنتُ أستطيع ياليلى التحكم فى مشاعرى وأنا أرى اربداد وجهه كثير الغضون وارتعاشات صدره المضطرب. صرخ فى وجوهنا:

ـ كفاية صداع.. مالها المخدرات؟.. كلها منافع.. لنا منها لقمة عيش وللغلابة مزاج ونعمة.. وأيمانات الله، الحكومة التى لاتعجبكم أرحم منكم.

ورأيتك تعضين على نواجذك وتتابعينه إذ يندفع إلى القصيرين، منتفخ العينين والأثرم، القواد وسارق البنك التعاوني. استقبلاه بضحكة فاجرة وأتيا وهو معهما بأفعال خرقاء. كفك ياليلى أهابتْ بى ألا أنفعل. نظرتُ إليكِ مستغرباً والدم فى عروقى له هدير وعنفوان، لكنك ثَبَّت عينيك

الصافيتين فى عينى ثم أشرتِ إليهم وهم يمضغون نتفاً من أفيون أوحشيش.

- ٧ -

تذكر الطبيب أنه، بالرغم من طلبنا له، لم يُجر كشفه الطبى علينا فأرسل من يطلبنا.

العيادة كشك منزو وراء الورش. أمامه برج المراقبة، وماسورة تندفع من شرخ فيها مخلفات دورة مياه.

إلى الترابيزة الوحيدة جلس. تخلل شيبته ثم عبث بتذاكرنا.

- ثلاثة وعشرون.. أنتم كثيرون.

وفيما يعقب راشد.

- وثلاث فتيات أيضاً.. هناك أيضاً ثلاث فتيات..

رأيتُ إصبعك الدقيق يهبط على رقعة بعينها فى تذكرة من تذاكرنا.فى دائرة النور المنبعث مه نظرتُ. التاريخ. « يكتب تاريخ دخولنا وليس تاريخ اليوم.. كل هذه الأيام يطمسها بجرة قلم ».

- تزييف.

دوراتْ الرءوس نحوي

- لايكتب تاريخ اليوم.

حاصرناه فتنحنح:

- خطأ غير مقصود.

أصلح ماكتب فسحبتِ إصبعك النورانى ياليلى ، لكن ملامحك المتوفزة وتَّرَتْ فيّ ذلك الإحساس الغامض الذى لايفتا يعترينى كلما أحسست بأن شيئاً ما لاترضينه سوف يحدث فترقبتُ ، وقد كان، فوجئنا به لايُجرى أية فحوصات على الإطلاق. فقط ينظر لصاحب التذكرة منا

ثم يصرفه. قلنا:

- والإصابات؟

أجاب:

- ليست من اختصاصي.

انفجرنا:

- آذاننا مصابة..

- ركبتي وأنفي..

- .. سلاميات أصابعي ليست في أماكنها..

- .. انظر لكتفي المخلوع.

- ليس من اختصاصي.. ليس من اختصاصي..

ولمحتُ في وجهك تلك الارتعاشة التي تدل على أنك تعضين على نواجذك إرجاء للحظة انفجار وشيك فهتفتُ به:

- من واجبك أن تُثبت ما أحدثوه بنا.

تحركتْ تفاحة آدم في عنقه:

- افهموني أرجوكم..

- لكنه واجبك.

- أرجوكم.. لاتورطوني.

وقرأتُ في تحرك شفتيك المتوثبتين كلمة «لا».

نشرتِ رداءك حولنا فاعتصمنا احتجاجاً، وحجَب رداؤك عنا شواظ نظرات الطبيب، ولهاث الحراس الذين استدعاهم.

نفرنا فاضطر لإثبات إصاباتنا بيد ترتجف.

في الحوش الخلفي، حيث المخبز وزنزانات التأديب، جمعتنا حزمة ضوء. عبر السحب ومربعات الأسلاك الشائكة نفذت وانطبعت على جدار المخبز. على مقربة، في المسافة بين غلايتي البخار والحفرتين المملوءتين بالمازوت، انهمك عدد من السجناء ملطخي الثياب في عمل مرهق. بأيديهم عتلات ومفاتيح ثقيلة. يعلو صراخ الطهاة ويجاوبه زعيق سجناء المغسل، فالماء الساخن تأخر؛ وبالأعلى استقرت المدخنة صامتة مستسلمة. فوقها عصفور يهتز لاهتزازات الريح.

افتقدتك لما انطبعت ظلال المربعات الشائكة فوقنا. تنتشر العقد المسننة فوق أجسادنا ، علامات غامضة للتنشين أو الطعن ، وتتوزع فوق وجوهنا بثور سوداء لا معنى لها. فوق أنف مجدى حط ظل العصفور. قهقهنا وقهقه. ورأيتك تنسربين ياليلى من بين السحب الثقال وتهبطين إلينا. سحب وشمس. رماد ونور. عيناك هائمتان لا ترتكزان على شيء. الحزن المشوب بالحزم يرتجف تحت أهدابك. قلتِ:

- أراكم مكتئبين.

قلتُ:

- لكنك تريننا ضاحكين.

واكتسب رضابك من الشمس وردية راهية. أُخذتُ بفتنتك، لكنك ضغطتِ نفسك، كأنما تنفضين عن نفسك أكذوبة ضبطتِ نفسك تصدقينها.

- ضحكٌ كالبكا.

أطلقتها واضحة صريحة فنكسنا رءوسنا بينما حلق العصفور وهدرتْ الغلايتان.

- ٩ -

ـ تغيير العالم..

مأخوذاً ردد السجين ماالتقطه، فيما غمر شعاع خفى المصدر وجهه:

ـ كان يجب أن تُسجنوا لألتقي بكم.

ورفع رأسه باتجاه الكروان الذى مرق من فوقنا:

ـ كنتُ نائماً، لاميتاً.. أنا الآن حي.

ورحت ترمقينني عن قرب والهواء الشتوى يتحلل شعرك ويطيره فيداعب خدي.. رقيقاً.. حانياً.

- ١٠ -

لما ارتفع ذلك الضجيج ورأيتكِ تلتفتين باتجاه المطبخ، أدركتُ أن الأمر يتعلق بصرف الطعام. لم أهتم فغالباً مايتشاجر السجناء فى مثل هذه الأوقات. لكن اندفاعة ذى الذراعين كثيرتى الاهتزاز أوقفتني. لن أعود لخطيئة تجاهل ماتفعلين. فمه مفتوح على اتساعه وعروق تنتفض فى عنقه. بدا أنه فى طريقه إلى العنابر. ومن خلفه اندفعتْ ثلة من الحراس، بينما وقف الرماديون حيث هم أمام باب المطبخ يضربون كفاً بكف. دنا منى فاستوقفته. بيده قطعة لحم نيئة وحنجرته لاتتوقف عن الصراخ:

ـ صبرنا على الجرب والجبن المعفن.. والعجوة «أم سوس».. «والخبص» الذى يطبخونه.. لكن أن يكون اللحم مدوداً فلا.

اقترب الحراس بخيزراناتهم وأحزمتهم وأنفاسهم المكروشة، فيما انقذفت دودة واستقرت على كتفى خليتُ عنه ليمضى مهرولاً:

ـ اللحم مدود.. اللحم مدود.. الدود فى اللحم.. الدود فى اللحم.

ورأيتكِ تقفين قبالتي.. تحملقين معى فى الدودة الزاحفة باتجاه صدرى ولم نستطع الكلام.

. . . . .

. . . . .

طوحتُ بالدودة ورفعتُ رأسى فطالعتنى عبر النوافذ الحجرية وأبواب المكاتب والكانتين وتقاطعات القضبان وجوه جامدة وعيون محملقة. سجناء المطبخ والورش تكتلوا. اختلجتْ الأصابع فوق العتلات، وتوترت الأكف على مساند المقاعد فضغطتُ على كفك ياليلى وسرنا إلى قلب الحوش.. أنا وأنتِ والزملاء والسجناء من حولناه بينما يعلو الصوت:

– الدود فى اللحم.. الدود فى اللحم.

وباتجاه الحراس الذين هم فى لون التراب تطوحتْ ذراع وانقذفتْ عتلة .

(٢٣/٤/١٩٧٥م).

القصور

إلى القافزين فوق الواقع.

.. وظل صوت ارتطام الباب يتردد بعنف. ومن داخل أهلة الظلال المعلقة بحواف طواقيهم صُوِّبَتْ نحوى أعين شديدة الاتساع. شديدة الصفاقة.

أحسست بارتماءة البطانيتين المُلْقَاتين لتوهما فوق حذائى فيما تحرك صرصور بين جردل الماء وجردل البول. من أمامه ومن خلفه انتشرت برك صغيرة من ماء مصفر، وعلى جزء من الحائط تناثر رشاش بول طازج. لاشيء فى وجوههم سوى العيون. وعيونهم هى تلك النظرات الضعيفة فى استكانة، الشرهة فى تغاب، المستفزة، الشرسة، الوديعة، الجهمة، وكل مايمكن أن يفور بالأعماق.

امتد أصبع إلى أنف مجدور، وانحسر غطاء مكوم عن وجه أشرم وعينين مقرحتين. خط أفقى من مخاط يمتد حتى شحمة الأذن المغطاة بأوساخ ثقيلة. فوقه النافذة والقضبان ومساحة ضيقة من شرفة تغمرها أشعة الشمس، وثمة غيارات داخلية لطفل تخفق عبر الفراغ المبهر فتكاد تسد النافذة.

خبطتْ يد الأشرم على غطائه فابتلعت خفقه الغطاء الذبابات الدقيقة التى اعترتنى واحتوت المكان. رن صوت: «كار البك؟».

أجبتُ: «سياسي». تواصلتْ العيون. شيء ما أوسع فيها الحدقات.

شيء لاأدرى كنهه، لكنه شحذ فيّ كل حواسي. خشخش صدر: «بتاع كلام؟». وأرعد صوت: «الحكومة أتحفتنا بأفوكاتو ياغجر».

التقطتُ البطانيتين بحركة من قدمى وتحفزت. «أفوكاتو محبوس فى زنزانتنا يا...[1]». «أفوكاتو متعلم ومتنور». «لكنه والحق يقال.. أفوكاتو جميل وملهلط».

جحظتْ عيناى فتوقف الضحك وشُلَّت حركة الأشياء إلا من دقات قلبى العنيفة. بين قدمى لمحتُ فى الأسفلت خطوطاً غائرة للوحة سيجة، إلى جوارها تناثرتْ حجارتها المصنوعة من لباب الخبز وقطع العظام النخرة.

أزاح الأشرم غطاءه بقوة دحرجتْ عدداً من القروانات فتخلخل الصمت وتناثرت وسط الزنزانة حبَّات قليلة من أرز وقشور فول سبحت فى بقع من عدس مطبوخ له قوام الغائط. نهض. نحيل وقصير على عكس ماتوقعتُ. شهق ثم زفر: «أفوكاتو ابن حرام نصب علىّ.. نتف ريشى وسلمنى للحكومة». الشرم يشق غلظة الصوت ويغلفها بصفير متقطع. تقوقعتُ ريثما أجمع شتات نفسي، إلا أن رعدة قوية هزتنى وأرعشتْ البطانيتين فى يدى فجلستُ على الأسفلت وكومتهما أمامي. تلمست صوتي: «سياسي.. أنا سياسي». علاصوت: «سياسي. سياسي.. صدَّعتنا». «لستُ بأفوكاتو...» أسكتتنى عينان: «عرفنا». وعَتُمَتْ الزنزانة فى ناظرى إلا من البياض المسيج بقضبان النافذة: «..أأ.. أنا منكم.. أنا معكم.. معكم». «نعرف أنك معنا.. الجميل أنك معنا». وتلاطمتْ الضحكات تلاطم الشظايا.

شيء مافى ضحكهم أثارنى فوثبتُ منتفضاً ودستُ على البطانيتين. لعله الزبد الناز من زوايا شفاههم، أوظلمة حلوقهم وزرقة الأوردة المنتفخة فى أعناقهم. أولعله اللحيم الذى راح يتلوى من شدة الضحك.

---

(١) كلمة بذيئة .

قلتُ: «عند هذا الحد وكفي»، لكنهم تحلقوني. لمحت الصرصور يتحرك بين ساقي أحدهم. انتفضتُ: «قلت كَفَى.. كَفَى». انفرجت شفتان وارتمى رأس إلى الوراء: «آآآه». واستمروا في إحكام الحصار. اندفعتُ: «لستُ جنائياً.. أنا سياسي.. أحضروني هنا لينتقموا مني». وسكتُّ فيما علك أحدهم شيئاً ما غير ظاهر. إلى جواره فم مفغور ولسان يلعق شفتين. توقف الصرصور داخل خطوط السيجة. ومن النافذة ظهر أعلى البياض صدر امرأة تحمل رضيعاً.

اقترب المجدور برأسه. المخاط لايزال يربط بين أرنبة أنفه وشحمة أذنه كوّم شفتيه وزمهما للأمام. فوق الشعيرات النابتة حول البثور ذرات من غبار: «غلط.. غلط». ثم التقم شفته العلوية بأسنان متفرقة لامست المخاط: «احضروك ليسروا عنا». وثقب البياض المحاصر نباح كلب هائج.

هتفتُ: «ياشاويش»، فهز المجدور رأسه: «تؤ.. تؤ.. ياحرام». لمحتُ خلف أذنه رأس دمل متقيح: «مارأيكم ياأولاد الهرمة؟». كركر صوت: «نخلّص معه وننتهي».

رأيتُ الباب فمرقتُ إليه. من ثقبه تبينتُ رمادية الممر. استندتُ إليه بظهري ولوحتُ بقبضتي تجاه رءوسهم. توقفوا وضحكوا. أسكتهم الأشرم بإشارة: «هس.. اسكت إنت وهو.. البك يقول إنه سياسي.. ما رأيكم لوكلمنا عن السياسة؟». تجاوبتْ الأصوات. «ربما كان يسايس الخيول.. هيء هيء هيء». «أوسايس موقف». «السياسة لا تؤكلنا يمكاً[1]» وامتدت يد إلى صدر مكشوف: «.. ولا تبرد ناري». «هاهاها». «هاهاها». «هاهاها».

جمعتْ المرأة ثياب رضيعها المتشبث بكتفها وتلاشى البياض قطعة إثر قطعة.

---

(١) لفظة تطلق على الطعام المطهو فى السجون .

« هيه يابك ». « أنت ياأفندي ». « أنت ياحضرة ». أفقتُ فطفقتُ وقد استعادت قبضتي شيئاً من قوتها: « أنا رجل ديالكتيكي.. ديالكتيكى مادي.. لستُ هيجـ.. ». أسكتتني يدٌ: « إه.. إه.. ديالـ.. إه؟ ». « ديالكتيكي.. ديالكتيكي.. أنا رجل ديالكتيكي ». تحجروا فطالني بعض انتعاش: « رجل ديالكتيكى يعنى جدلي.. أومن بالجدلية المادية.. الحركة.. وحدة الأضداد.. التراكم الكمي.. نفى النفي ».

بدأت أفواههم تُفتح. ضعفهم إذن قد ظهر، فلأُمسك بزمام الموقف « جاءوا بى لأننى جاهرتُ بعدائى للإمبريالية والبرجواز.. ». « إه.. ماركات راديو جديدة؟ ». « لا.. افهموني.. الإمبريالية العالمية تعنى الاحتكارات.. الكارتلات.. التروستات.. المتربولات؟؟. « إه؟!.. إه؟! ». « ألاتفهمون؟.. بروليتاريا.. بروليتاريا »

علقتْ كل عيونهم بي. وجومهم لم يتبدد. أحدهم أمال حاجباً ورفع آخر. انفرج فكا الأشرم: « ياأغبياء ألا تفهمون؟.. بروليتانيا[1].. البك يتفلفس[2] ».

وانفجرت الضحكات من جديد.

« افهموني. بروليتياريا.. برو.. ليـ.. تا.. ريا.. ب.. ر.. و.. ل.. ي.. ت.. ا.. ر.. ي.. ا».

ابتلعتْ ضحكاتهم صوتي. تقدم المجدور وفرد ساعديه: « اسكت إنت وهو ». ارتعبتُ فيما غاصت إحدى قدميه فى بقعة عدس فاندفعتْ من بين البراجم فقاعات متفاوتة الأحجام. هتف: « سنية ».. فبرز أصغرهم. نحيل. قصير. أصفر. « اختارى اسماً لضرتك ياسنية ».

ازددتُ التصاقاً بالباب فيما صوَّبَ سبابته إلى رأسه وراح يصطنع

---

(١) يقصد بروليتاريا.

(٢) يقصد بتفلسف.

التفكير بطريقة أنثوية. لمحتُ في كتلتهم ثغرة مرقت منها إلى الحائط المقابل مصطدماً بالقروان وبقع العدس. نبح الكلب من جديد، وبدأ المخاط يسيل من أنف المجدور بينما صَرَّ الأشرم على أسنانه. هتفتُ في محاولة خشيتُ أن تكون الأخيرة: «الإمبريالية.. الا تفهمون؟»

لمحتُ عينا تحملق من ثقب الباب. الحارس. فاندفعت: «ياشاويس» «هاهاها». «هاهاها». «هاهاها». «ياشاويش.. ياشاويش». «هاهاها». «هاهاها» «ياشاويش.. ياشاويش». اهتزتْ العين: «اسكت ياابن الحلوف».

وبدءوا هجومهم. وثبتُ إلى منتصف الزنزانة فتعلقتْ قدمي في كف أحدهم وسقطتُ. حبوتُ صوب الباب، لكن كلاَّبة سحبتني للوراء. يداي المبسوطتان باتجاه الباب تتشبثان بالأسفلت. العين نفس العين. خلَّصتُ قدمي ونهضت. أسقطوني. نهضتُ. طرقتُ الباب. ابتعدتْ العين. «ياشاويش». جروني إلى الوراء. تعلقتُ بالباب. أملس. خدشتْ أصابعي في صدئه خطوطاً طويلة. الأسفلت يهشم أظافري. الدم يشع من جلدي. العدس يلوث وجهي والدم. «بروليـ... » وداستني أقدامهم فعويتُ.

ارتج الباب فجاة وصلصل مفتاح. السجان. توقفوا. من خلال قطرات العدس العالقة بأجفاني لمحته. كتلة كاكية عملاقة. من ورائه الرمادي المسيطر على الممر. تقدم خطوتين فوطأ الصرصور. حَرَّكْتُ أجفاني لأنفض عنها قطرات العدس. الصرصور أشلاء منسحقة. هممتُ بفتح فمي استنجاداً، لكنهم ضغطوا عليَّ أكثر. ومن خلال أيديهم رأيت أصابعه تفك أزرار بنطلونه. وكان الباب مفتوحاً

(٢١/٣/١٩٧٥م).

مشاهد من حالة
يقال إنها خاصة جداً

١ – مقتطفات من منولوج طويل (*) :

(أ)

(...)، أنت هنا ياعزيزتي؟ .. قتلوك السفلة؟

لا تأبهى وانظرى حواليك.. يبدو أننا نعيش حياة جديدة. تبكين؟.. لا أشعر بالرغبة فى البكاء، فالفرح يستبد بي.. لكننى مجهد.

(ب)

انظري.. هذه القدم.. إنها تشبه أقدامهم. نفس الحذاء وطرف البنطلون.. أما ترينه؟.. نفس القايش والسترة وعلامة الصدر والبيريه. أذكر أننى رأيت هذا الوجه من قبل. إنه أحدهم. نعم. من المؤكد أنه كان ضمن الواقفين أمام الباب. نعم كان هناك عندما أوصدوه خلفى وألقوا بى فى جوف العربة.

(جـ)

ها أنذا أتذكر الدفعة التى أسقطتني، وياقة قميصي المشدودة للخلف.

(*) نقلت عن محضر تفريغ أشرطة تسجيل .

برودة الدائرة الملتصقة بظهرى والقماش الذى عصبوا به عينى ولما انتثر شعرى واندلقتْ داخلى رائحة الصحراء، شرخ الصمت صوت طائر.

- انزعوا العصابة.

نزعوها، فإذا ببنادقهم مصوبة نحوي، والسماء ملاءة سوداء أوكفن.

(د)

فى لحظة، أو ومضة، تمنيتُ لو أطال نسيم الصحراء المترب معابثته لخصلات شعري. ومن فوقى لمحتُ نجماً باهتاً ثقب الملاءة وراح يطل من بعيد.

(هـ)

مثلما يسقط السكين فوق الذبيحة، أو يغوص السيخ فى قرار العين، مثلما نزعوا الثوب عن صدرك، انشق السواد البهيم لينقض على وجهى ضوء حام.. أصفر أوبرتقالى أوفضي.. لا أعلم يا(...).. زعق طائر وخلّف رفرفات جناحيه. استدرتُ هارباً من الضوء. طعنة ضوء أخري.. وأخري.. «جعلوك أيها الضوء صليبي». واكتشفتُ من تحت كفى المرفوعة أنها أضواء مصابيح عرباتهم.

(و)

- انظر

رئيسهم. نبرته نصل منشاري. ردتنى انعكاسة الأضواء على خوذاتهم إلى الفوهات المشرعة. لا أعرف باى شيء رجفتُ. ربما باحرف لا أكثر. أحسست بركبتيّ تصطكان فسألتُ نفسى للمرة الأخيرة: «وماذا يحدث لو بحتُ لهم؟».

(ز)

« يافقراء وطني .. يافقراء العالم .. لست شهيداً ولاقديساً . فقط أحبكم » .

(ح)

كتفتق الزنابق عن أكمامها ، رأيت هفهفة ثوبك فسرى فى حنايا صدرى تيار دافىء مريح . « اللحظة الأخيرة ، والإغماضة الأخيرة ، (...) أمامى .. يالها من نهاية » .

لكن يديك كانتا مكبلتين . كان يجرك . انفجر فى داخلي شيء « ربما صلبوها مثلك » . صحتُ : « لا » . ورأيتك تقاومين.

« لا .. لا » .. وتكلم صاحب اليد الغليظة والبوق :

- إن كنت تخشى عليها تكلم .

خشيتُ عليك ففتحتُ فمي ، لكننى سمعتك تهتفين . بل تصرخين:

-إياك أن تتكلم .. إياك أن تتكلم.

فانطبق فكاى ، ليغموا عينىّ من جديد ، ويشدوا من وثاقى .

(ط)

ارتفع زئير رئيسهم.

- استعدوا

صفعتْ أذنىّ اصطفاقة الأقدام المتراصة فى الظلمة . هززتُ رأسى بعنف . جسمى انتفض وكفاى ارتعشا وسقطت العصابة فعاودتُ الصراخ:

-(...) ، أين أنتِ؟

صرخ قائدهم:

- اضرب .

وظهر لمعان فوق الفوهات المصوبة نحوى ودوى صوت صرخة نسائية :

- (...) ، أنت لم تمت .. أنت حى .. حى .

٢ - الحارة :

مربعات بازلتية سوداء ، جدران رمادية، وغسيل تتقاذفة الريح على أحبال تربط بين الشرفات المتواجهة . بالوعة تفرغ ماتحتويه فى بقبقات تدفع صبياً لأن يعبث فيها بعصاة ويرش بها على صبى آخر . عجوز تبيع العسلية ، وطفلتان تتقافزان فوق مربعات طباشيرية . عبر خفقات الغسيل وقطرات الماء المحملة بألوان الأقمشة تسقط أشعة الشمس فوق مياه الطفح، فتنعكس لألأة راقصة على الجدران . يتبارى الصبية للإمساك بها ويتصايحون فيما تصّاعد إيقاعات زار عنيف من نافذة أوشرفة ما .

وقف الرجل ووضع أسباته . مدًّ يده فى جيب جلبابه وأخرج ورقة . سأل بائعاً جوالاً ، فأشار ناحية أحد البيوت .عاد لحمل أسباته واضطر لأن يقفز من فوق مياه الطفح . أمام المدخل توقف فقد نسى أن يسأل البائع عن الطابق الذى به الشقة التى يسأل عنها . وضع الأسبات وشد جلبابه وطرق باب الشقة بالطابق الأرضى ليسأل فى أى الطوابق يسكن خلف الله ولد خالته . لم يرد أحد . تردد . طرق ثانية . لاأحد . انحنى على الأسبات ليرفعها ، فانقض عليه ثلاثة رجال. شهق : أية خدمة؟

أبرز أحدهم بطاقته: مخبرون .

٣ - كلام عن الصداقة :

الشاى ياعسكرى .. سيجارة؟ .. تعمدت الالتقاء بكما معاً لاعتذر عما حدث حتى الأمس . كانت تمثيلية لتوضيح ماتملكه من إمكانيات .

لاتحملاها محمل الجد .. ها .. فلنعتبرها دعابة.

موقفكما لايسر . المنشورات والكتب تدمغكما.

اسمحا لى ، كصديق ، موقفكما بالأمس كان رومانسياً خالصاً . تتكلمان عن الفقراء ، وأحياناً ، بل غالباً ، مايحاربونكم. سيجارة ؟ .. مايدهشنا ، ولعل هذا يرضيكما ، صياغة المنشورات . جديدة .. ألستما معى؟ .. لاتشبه ماتعودناه . انضممتما إذن لتنظيم جديد . تنظيم يمكن الربط بينه وبين القلاقل الأخيرة.

لأعترف .. وها أنتما تريان صراحتى التى بلاحدود .. إن القبض عليكما هكذا ، وبهذه الطريقة ، كان عملاً غبياً . لوكان الأمر بيدى لانتظرتُ قليلاً .. لكن ها أنتما تريان أنكما هنا فى ضيافتى حتى نعرف الحكاية .. سيجارة؟ .

٤ – الماء :

أوقفها الحارس ثم فتح الباب فرأته . من خلال جذوعهم رأت شعر رأسه المبلول . نظر الأنيق ناحيتها وأعطى إشارة من رأسه فدفعتها يد وأغلقت الباب . خاضت فى الماء إلى حيث يرقد بكامل عريه . على بطنه فوق دكة مدَّدوه . ذراعاه مشدودتان ومربوطتان أسفل منها . أشار ذات الرجل فامتدتْ كف وقبضتْ على شعره . لحظتها سقط الخرطوم واندفق الماء فى أكثر من ناحية . لم تستطع فقاءت . وجهه كتلة بنية منتفخة، وثمة ورم يمتد بطول وجهه عبر عينيه المقفلتين.

– أيقظوه .

انهالتْ عليه الأكف فتحركتْ أورام عينيه عن خطين رفيعين تهتز عبرهما رموش مثقلة بقطرات متخثرة من دم . دفعوها لتصبح قبالته . إليتاه عاريتان وندوب كثيرة تغطيهما . ترنحت فأسندها اثنان . نهنه

بصوت غير مفهوم ، والكف تشد شعره ماتزال . لوتُرك لسقطتْ الرأس على خشب الدكة . بإشارة سحب أحدهم الخرطوم ودس طرفه بين أليتيه. ندَّتْ عنه آهة جزعة وانتفض جسمه . تراجعتْ فدفعوها بعنف .

– تكلمى .

ضغطتْ على رأسها بكفيها فأزادوا ضغط الماء فى الخرطوم . صرخ فانشقت رأسها .

– تكلمى .

المياه تغرق الأرض ، والأشياء تنقلب ، تدور وتتفتت وتتداخل . وهو يصرخ .. يصرخ .. يصرخ .

٥ – استجواب عادى :

– الاسم ؟

– مؤكد فيه غلط يابك .

– الاسم؟

– إسماعيل عوض عبدالشافى .

– المهنة؟

– مزارع يابك .. مزارع .

– السن؟

– حوالى أربعين يابك .

– البطاقة ..

– تفضل .

– من العصلوجى؟

– ...

– رد .

– من العصلوجي يابك .. من العصلوجى شرقية .

– عندك أولاد ؟

– ثلاثة يابك .

– تحب ترجع لهم؟

– ياخبر .. طبعاً يابك .

– كلمنا عن علاقتك بـ(...) وزوجته .

– من؟!

– (...)

– من (...) يابك؟

– ساكن الشقة التى طرقت بابها.

– « معرفوش » .

٦ – جزء من حوار تليفونى :

رئيس الجهاز : لاياسعادة الباشا . الأمر بسيط .. محاولة أوانتهاء وتنتهي .

المسئول الكبير: ....

رئيس الجهاز : مؤكد .

المسئول الكبير : ....

رئيس الجهاز : هاهاها .. مؤكد ياباشا .. مؤكد.

المسئول الكبير: ....

رئيس الجهاز: كل شيء مكتوب فى التقرير.

المسئول الكبير: ....

رئيس الجهاز: هاهاها .. كلام سعادتك مضبوط .

المسئول الكبير : ....

رئيس الجهاز : الفلاح؟ .. المخبرون وضعونا فى مأزق .

المسئول الكبير: ....

رئيس الجهاز : ابن خالته فى نفس العمارة واسمه خلف الله .

المسئول الكبير: ....

رئيس الجهاز : بسيطة ياباشا .. نستكتبه اعترافاً تفصيلياً .

المسئول الكبير : ....

رئيس الجهاز : اطمئن ياباشا .. هذه هى شغلتنا .

٧ - الإجهاش:

خبط الباب . جرى ناحية الحائط المقابل ثم عاد إليه . دس عيناً فى ثقب الباب . ركل جردل البول فاندلق الماء والنوشادر . أطاح بالبرش فى فراغ الزنزانة وهجم على الباب بباطن قدميه .

-ياأولاد الكلب .. ياأولاد الكلب .

مشحونة مرجوفة زأر بها . صراخها فى الخارج يغزو فتحات الزنزانة ويختلط بصراخه . يشرخ كل شيء فيه . أصغر الخلايا . أدق الذرات . يكاد يجن . ماذا يفعلون بها ؟ .. ماذا يفعلون؟ .. النافذة .. أتى بالجردل . وقف فوقه . لايطول . يثب .. يثب . يمسك بقضبانها . يزحف بقدميه على الحائط . يرفع جسده . لاشيء أمامه سوى باب الزنزانة المواجهة . صراخها . صراخها فقط . لويرى أحداً . لويرى شيئاً . لو .. لو..

- ياأولاد الكلب .. ياأولاد الكلب .

وأجهش بالبكاء ، بينما امتدت يد فى الزنزانة المجاورة تدير صماماً فيرتفع الصوت ويعلو.

٨ - عود للاستجواب العادى :

- لاتراوغ .. كلمنا عن التنظيم .
- يانهار أسود (!!) .. تنظيم(؟!)
- (...) وزوجته قالا كل شيء عن علاقتك بهما .
- ياخبر منيل .. والله العظيم عمرى ماشفتهم.
- انت غبى .. لاتعرف ماينتظرك .
- يابك أنا رجل غلبان .
- اعتبره آخر إنذار .
- يابك صدقنى .. والله والله .. والله يابك « معرفوش » .

٩ - العصفور:

انصفق الباب وصرَّ المفتاح وأخذ دبيب أقدامهم فى التلاشى . ظَلَّتْ خصلات شعرها مكومة تحت قدميها ، وفوق ركبتيها تناثرت جذاذات قليلة ، وإلى النافذة الوحيدة ، حيث تسربت من القضبان حزمة مخروطية من أشعة الشمس ، مالتْ برأسها الحليق وراحتْ تتابع عصفوراً حط على القاعدة الحجرية وأخذ يغرد .

١٠ - تجربة جماعية :

صفرة الوجوه تشده إليهم . الخطوط المريرة والندوب وعظام الصدور النحيلة. أحدهم يجلس فوق أحد الجردلين يضرط. يسبونه ويضحكون . آخر يمد كوزاً فى الجردل الملاصق ويشرب . لم يدر السبب الذى حدا بهم لنقله إلى هذا المكان . يدبرون شيئاً . يفريه جهله بما يدبرون . أحدهم خلع سترته وانهمك فى تفليتها . يجمع القمل فى حفرة أمامه . يسيطر بإصبعين نشيطين على اضطراب الحركة داخل الحفرة . يلم الشارد من

القمل ويفح . أصابه الذعر لما تبين أنه إنما يطلق ضحكة كبيرة مخنوقة المعالم .

– مخه طاقق .

قالها النحيل المتكور فوق برشه ثم مدد ساقيه وشخر . أصابه سؤال :

– مخدرات؟

– مُعارضة .

تعرجت غضون الوجه الممصوص فى حين علق أحدهم بصوت مشروخ :

– ياه .. معانا واحد عامل رأسه برأس الحكومة ياجدعان .

فح جامع القمل من جديد بينما علا ضراط الجالس فوق الجردل .

لحظتها فُتح الباب وظهروا بملابسهم المدنية . عرفهم . لم يأبه ولم يقف . جذبوا شيئاً ودفعوه . وجدها أمامه فالتفت إليهم ليسمع صرير المفتاح ووقع خطواتهم المبتعدة . نظر إليها ونظرتْ إليه وعادا ينظران إلى العيون المتسعة فى بلاهة ثم كور قبضته والتصقتْ هى بالحائط خلفه .

١١ – جزء ثان من حوار تليفونى آخر :

المسئول الكبير : أنا غير راض عن تقريرك الأخير .

رئيس الجهاز : ....

المسئول الكبير : لا .. لا .. المكتوب فضيحة .. كل كلمة تعتبر فضيحة .

رئيس الجهاز : ....

المسئول الكبير : كراسينا تهتز .

رئيس الجهاز : ....

المسئول الكبير : حاول بأى طريقة .. بأى طريقة .

١٢ - نهاية الاستجواب العادى :

« .. وقد أدليتُ بهذه الاعترافات بإرادتى وبوازع من ضميرى ، وبدون إكراه من أى فرد أوجهة » .

أمسكوا سبابته ، مرروها على الحبر الأسود ثم طبعوا بصمته .

وإذ يبكى ألماً ورعباً ، حملوه من جلبابه وألقوا به إلى الحراس ، ولم يلحظوا اختلاط الدم بحبر البصمة .

١٣ - أمنية :

أمام أحد الأبواب التقيا . قال :

- جميل أننا لم ننجب أطفالاً .

ارتمتْ عليه وأجهشتْ :

- ليتنا أنجبنا أطفالاً .. ليتنا .

وانهمر عليهما الحراس بالهراوات والأحزمة .

(٢٧/٣/١٩٧٦م).

ثلاث حكايات
عن نزيفك يا وتر

- حكايـة تُـــروى
- حكايـة رجل عصبى
- حكاية العم شعلان

حكاية تروي

يُروى فيما يروى أن رقم ٣٥٧الطالب[١] ساكن الزنزانة رقم ٢٣ بالدور الثالث بالمبنى الثانى داخل السور ، كان قد انتهى من مسح بلاط الدور بأكمله ، فتمطى وطقطق عظامه ثم حمل الجردل واتجه إلى دورة المياه مشمر الساقين والساعدين ليُغَيِّر مياهه المملوءة بقشور الفول والبصل وعيدان الفجل وأعواد الكبريت بأخرى تصلح للشرب .

وإذ يُروى أن زميلين له في الزنزانة أكدا في هزارهما معه أنهما سيدلقان الجردل ومافيه فوق رأسه إن عاد وبه شائبة ، فقد قام بغسله أكثر من مرة ، ومن ورائه ومن حوله السجناء ، بعضهم يستعجله ، والآخرون يستعجلون الجالسين أمامهم فوق المراحيض بسيقان وأفخاذ ومؤخرات مكشوفة . ولأنه لاأبواب هناك ، فإن روائح الغائط وفرقعات الضراط تتداخل مع نوشادر البول وهدير المياه المندفعة من الحنفيات المربوطة بالدوبار . بالتوازي، يعلو السعال الذى يهز الصدور وينفخ الأوردة ، وإذ يتقطع، يُفسح لطرقعات النخامة على الجدران وبرك المياه لتفرض سطوتها على كل هذا الضجيج . أحدهم وكان حديث العهد بالمكان أفرغ مابجوفه على الأرض وأرجل الآخرين قبل أن يصل إلى الحوض ويتكيء على ظهر الطالب ويواصل الإفراغ .

---

(١) كان شابًا يدرس الحقوق ويحلم . يعشق ناظما ولوركا وزميلته طالبة الآداب . أرقه البحث عن سر بؤس أسرته وسكان الحي الذى ولد وعاش فيه ، فأخذ ينظم الأشعار ويقود المظاهرات . وذات مظاهرة قبضوا عليه فيمن قبضوا .

ويُروى فيما يروى أن الأومباشي عبد المولى[١] دخل دورة المياه في هذه الساعة ، وكثيراً مايدخلها ليشخط في اثنين أوثلاثة . كالعادة نادى نوبتچي الدورة[٢] وعنَّفه ، ثم حانت منه التفاتة إلى الطالب - أوهكذا بدا الأمر - فلانتْ ملامح وجهه ورَقَّتْ لهجته ثم صَفَّقَ بيديه آمراً :« يلا ياجدع إنت وهو .. حانقفل الزنازين » .

ولما كانوا قد تعودوا على سلوك بعينه إزاء مثل هذه الأوامر فقد نشطتْ حركة الأقدام والأذرع بين غسيل للقروانات وملء للجرادل . انثنت جذوع وانشدت قامات ورُفعت وخُفضت ألبسة . في نفس اللحظة عَلَتْ الحناجر وصفقت الأكف وتلاطم المندفعون مع الواقفين فسقط أكثر من واحد ، إلا أن الساقط منهم مايلبث أن ينهض ويفر بوسخه .

من نفسه كف الطالب عن التنظيف وفتح الحنفية على آخرها عساه أن يزيد من اندفاعة الماء ، وإلا فالويل كل الويل له من الأومباشي عبدالمولى .

لكن يُروى أيضاً فيما يروى أن الأومباشي عبدالمولى أفهمه بطريقة ما أنه يمكنه ملء الجردل على مهله وأن الدنيا لم ولن تطير ، ثم خرج من الدورة ومن حوله تتسابق سيقان السجناء . ويبدو أن شيئاً ماخطيراً قد أصاب نظام الكون . كارثة أوماشابه ، إذ يُروى أن عبد المولى رأى عدداً من السجناء يقفون خارج زنزاناتهم المفتوحة ، وأنه حينما أمرهم بالدخول هَبَّ فيه أحدهم وأفهمه أن ساعة المقيال[٣] لم تحن وأضاف بأنهم ليسوا ديوكاً أوجديان حتى يقفل عليهم الأبواب حينما يشاء له مزاجه .

كان طبيعياً - وهذا ماحدث - أن يرعد الدور بأكمله ، بل العنبر كله، بشتائم عبدالمولى وصوت ارتطام حزامه فوق الأجساد والأبواب والحيطان لدرجة أن وهدان ، حارس الدور الثاني ، رفع رأسه من خلال مسقط

---

(١) الأمباشي عبد المولى هو الأومباشي عبد المولى .
(٢) السجين المنوط به تنظيم دورات المياه .
(٣) ساعة القيلولة وفيها تقفل الزنزانات على السجناء .

السلم وسأله إن كان يحتاج لأية معونة ، لكنه أسكته : «أنا عبدالمولى مـاأقـدرش على شـوية مـفـاعـيص ؟!» . وكـان أن تكوم الجـمـيع داخل زنزاناتهم فدار عليهم يحصيهم ويسبهم ويقفل عليهم الأبواب .عند الزنزانة ٢٣ توقف . ويُروى أن أحد ساكنى الزنزانة قال له : «لسه واحد برة» ، فَصَفَقَ الباب بعنف ، وحرَّك الترباس ، وقال: «عارف» ، وسمع من بالداخل وقع قدميه باتجاه الزنزانة المجاورة ثم تتابعت حركات الترابيس .

ويُروى فيما يروى أنه بعد إغلاق ترباس الزنزانة ٤٨ وهى آخر زنزانة بالدور ، عمَّتْ فترة صمت ثم سُمِع صوت شيء يسقط . فسره أحدهم بأنه صوت انفجار ، وقال ثان بل طلقات على زميل هارب ، وشرح آخر بل هى أصوات صفعات . وعلتْ ضجة كأنها زخات مطر مفاجئ . عندئذ برقتْ عينان وحملقتا فى السقف وهتف فم : «جردل .. جردل مليان ميه» .

ويُروى أن وقع حذاء الأومباشى عبدالمولى عاد ليصك الأسماع لكنه ، كما يقول بعض الخبراء من السجناء ، لم يكن ثابتاً الثبات المعتاد . ولأن الأمر كذلك فقد هرولتْ العيون إلى ثقوب الأبواب فى محاولاتها المعتادة لاكتشاف ماوراء حدود الرؤية . وحينما أعلن المحملق من ثقب الزنزانة القريبة من الممر الموصل إلى دورة المياه : «الأومباشى ابن الكلب شالل حركة زميل وماشى بيه ناحية أودة «النوبتچية»، تدافعت الأذرع كلها تطلب الثقب ، إلى أن اتفقوا على أن يُكتفى بعين واحدة ، ثم يَروى صاحبها مايشاهد ليتخذوا موقفاً حياله مع إبلاغ الزملاء فى الزنزانات المجاورة . لكن مساحة الرؤية كانت فضاء .

أكد أحد ساكنى الزنزانة المواجهة لغرفة النوبتچية بأنه رآهما ، وأنه بالفعل – أى الأومباشى عبد المولى – كان يشل حركة الزميل ، وأن الزميل كان يقاوم ، وأنه كان يرفس بقدميه ، وأنه – أى ساكن الزنزانة – لم يكن

يعرف ماوراء ذلك ، لكن فجأة فُتح باب غرفة النوبتجية ثم أُغلق . على الفور سمع دبيباً : « قلتُ للزملاء ... ولما جينا نعمل حاجة انفتح باب الأودة وخرج الزميل متحطماً ووراه الأومباشي عبدالمولى بيزرر سترته ووشه بيشلب دم .

ويروى أحد ساكني الزنزانة ٢٣ أن عيني الطالب عندما عاد كانتا متحجرتين وساهمتين وثابتتين على شيء ماغير مرئي ، وأن خطين نصف دائريين كانا يحيطان بأنفه وشفتيه ، وأنه بالرغم من ثبات ملامحه وتصلبها، بل وتحجرها أيضاً ، كانت ذقنه ترتعش في ذبذبات سريعة متواترة ، وأن عروق رقبته كانت تنتفض بقوة ؛ وفي المساء غطى وجهه بالبطانية وراح يجهش بالبكاء .

(٢١/٧/١٩٧٦م).

حكاية رجل عصبى

أنا رجل عصبى جدا، ومتوتر جدا . يقينا هناك شيء يشتعل بداخلى .
كلما انفردتُ بنفسى تشممتُ رائحة الشواء . وإذا تمددتُ أورقدتُ على أريكة أوسرير أورمل لاأقدر على مقاومة رغبتى فى التقلب . إذا ماغسلتُ وجهى أوألقيتُ جسمى بالماء طش وتحول إلى بلورات تنثرها السخونة من حولى مغيمة بالأبخرة . قلتُ : إن كتمان الأمر سيقتلنى ، وفاتحتُ أحد المعارف فضحك وقال : عال .. نأتيك بسفود .

•✻•

يشهد مخدومى بأنى أجيد أشياء كثيرة . الصيد والزراعة والصناعات اليدوية ، القراءة والكتابة والرقص والنقر على الآلة ، الطهى والغسل والكنس والمسح وإعداد المائدة ، رعاية الحديقة وتصريف المجارى وإصلاح التوصيلات الكهربائية ، لعب الدومينو والسيجة والطاولة والشطرنج .. فضلاً عن مهارتى التى لاتُجارى فى تفنيط أوراق الجوكر والبوكر والكومى والأليت والكونكان . فوق هذا وذاك أعرف كيف أسعد مخدومى بتقديم المكيفات والكحوليات وبنات الهوى .

– كل شيء .. أنت تعرف كل شيء .

دائماً مايردد مخدومى هذه الحقيقة فى عبارات مهما قصرت أوطالت فإنها لاتطفئ الأوار المشتعل فى داخلى ، ذلك الأوار الذى يأكلنى أكلاً ويدفعنى لأن أصيح ، أصرخ ، أجأر ، أبكى إذ أعترف بالشيء الوحيد

الذى اكتشفتُ أنى أجهله .. «السياسة» .

- ياعالم .. ياخلق .. ياهوه .. السياسة .. السياسة.

وأقعيتُ تحت قدم شخص قالوا بأنه ضليع فى أمورها ، فَربَّتَ على ظهرى :

- بسيطة .. توسط الميدان واهتف تسقط .. تسقط .. على الفور سيأخذونك إلى حيث تتعلم السياسة .

ثم أعقب :

- مجاناً .

وفعلتُ .

•*•

أخذونى إلى ذلك المكان المزدحم بالدهاليز والغرف . فى كل غرفة برش وبطانية وجردلان ، واحد للماء وآخر للتبول . لايمكن تمييزهما بشيء سوى الرائحة والتكلسات . تكلسات جردل البول أزيد قليلاً . كذلك رائحة النوشادر . عندما اقفلوا عليَّ الباب هنأتُ نفسى . هنأتُها، ورحتُ أرقب ترجرج صورتى فى جردل الماء . «أخيراً سأنجح فى إطفاء نيرانى الداخلية وأتمكن من النوم ويتمكن مني» .

صاح حارس فى الخارج وغرد طائر فتبينتُ بالغرفة نافذة وقضبانا . قلت: «من لايأخذ نفسه بالشدة لايتعلم شيئاً».

وعندما أطفئ النور ولم يبق سواى والجردلان والبرش قلت: «فلأفرغ مثانتى استعداداً لتقلبات الليل»، إلا أننى أخطأت الجردل فالتهب وجهي.

عند الفجر ، الوقت الذى تصل فيه مقاومتى لمنتهاها ، وأبحث فيه عن أى شيء يزيد منها ويدعمها ، شعرت باحتياجي لدلق ماء العالم كله فى جوفى ، إلا أن الماء الموجود قليل وملوث .

صحت :

- أيها الحارس .. أيها الحارس ..

ولما لم يجاوبنى أحد تعلمتُ أول درس فى السياسة وشربتُ الماء الملوث بالبول .

. * .

جلستُ على منديل الضوء ، الملقى من النافذة ، أتقمل واستدفئ وأتأمل تعرج ظلال القضبان فوق أشيائى . فجأة ، دُفع الباب بعنف ودخل الحارس . أُخِذْتُ ، فهذا ليس أوان التفتيش ، ولم تدهمنى الجلبة أوالضوضاء التى اعتدتها عند كل كبسة . تخلصتُ من حيرتى وهممتُ بالوقوف بالطريقة التى تعلمتها طوال حياتى أمام ممثلى الحكومة ، إلا أن ذراعيه امتدتا للخارج ، وبعد حركتين اثنتين رأيتُ ثلاثة رجال يندفعون إلى الداخل حتى كادوا يرتطمون بالحائط . قلت فى نفسى : « هذا حارس هرقلى .. لابد أنه قوى جدا ، وشجاع جدا حتى يفعل هذا مع ثلاثة رجال أكبر منه حجماً وأكثر منه شباباً » . غير أن زرا التمع فى سترته بفعل الضوء فانجذب بصرى إلى حزامه الجلدى والصقر الذى يتصدر غطاء رأسه واخرسٌ تفكيرى .

قال باتجاهى :

- ضيوف .

تذكرتُ أننى لم أقف بعد ، فوثبتُ واقفاً بالاحترام الواجب ، إلا أنه تجاهلنى تماماً واكتفى بأن حدجهم كلهم بنظرة واحدة تعلن أنه السيد بلامنازع . بعدها بصق فى اتجاه الباب :

- فى الصباح تتسلمون الأبراش والبطاطين .

ثم خرج وصَرَّتْ المزاليج والأقفال .

قلتُ بعدما وجدتها تبرق فى ذهنى وتتلاعب على لسانى :

ـ يستمد قوته من السلطة .

بدوا ضعافاً منهوكين . شفاههم مشققة وملتصقة وتثير الشك فى مقدرتهم على الكلام . تصعَّبتُ وواسيتُ نفسى ولكتها : « هاأنت ذا ستعايش ثلاثة مساكين » ، ثم ارتميت على منديل الضوء وعاودتُ الاستدفاء والتقمل ، إلا أن أحدهم استند إلى الحائط وقال :

ـ الخوف .. من الخوف ..

هه ؟ .. قلت : هه ؟ .. قال :

ـ الخوف .. يستمد قوته من الخوف .

وجلس بين زميليه بينما أحسستُ بأشياء كثيرة تتفتح فى داخلى ، فقفزت نحوه واحتضنته .

إزاء نظرة الاستفهام التى غزنى بها هتفتُ :

ـ أنا فرحٌ بك .. فرحٌ بكم .. بدأت أتعلم .. بدأت .

وجمعتنا بطانيتى الوحيدة .

. * .

لاأنكر أن السعير المتقد بداخلى قد خَفَّتْ حدته ، إلا أنه ولأمور لاادريها يتيقظ فجاة فيُحيل رقادى جحيماً . كنتُ أتحرج من التوجع امامهم . وماأكثر ماتمنيتُ فى مثل هذه الليالى أن تقطع الإدارة النور مبكراً عن موعده .. وكنتُ أعطيهم ظهرى وأعض على أسنانى . أقضم البطانية والبرش ولاأصرخ . كم مشيتُ على أربع وزحفتُ ، على غفلة منهم ، إلى جردل الماء لأعب منه . إذا ما انطفا النور ، كنتُ أسمح لملامحى بالتبدل ولجسمى بالتقلب الحذر . وإذا دخل الليل فى الغطيس أخرج من بين أضراسى بعض التأوهات ، ولربما بكيتُ .

هذه المرة أرعدتنى السخونة عند الفجر . وكنت قد نمت وأنا أفكر فيما حصَّلته ومالم أحصله . كعادتى فكرتُ بالماء وهممت بالزحف إليه ، إلا أننى رأيتهم متيقظين . رءوسهم متلاصقة ، وأحدهم يُمسك بورقة مبرومة اشتعل طرفها ، وإلى مقربة ارتمتْ علبة كبريت . «كيف تسرب الكبريت إليهم ؟» كنت أتلوى لكن ذهنى ظل قادراً على التمييز. نظروا إليّ كما لو كنت قد باغتهم . مد أحدهم يده وأطفأ الورقة . «آه» وانحرفتُ إليهم:

ـ ماذا تفعلون؟ .. انطقوا .. ماذا تفعلون؟

انقضضتُ على علبة الكبريت وانطلق ذهنى :

ـأنتم تتآمرون .. تسرقون .. تريدون سرقتى .

أشعلتُ عوداً فظهرتْ لى ورقة ممزقة الأطراف وبان قلم فى حجم عقب السيجارة .

ـ ماهذا ؟ .. ممنوعات ؟ .. قلم ؟ ..

ـ هششش .

وأسقطونى بينهم . كل ذرة فى جسمى تنتفض ، فيما ظل لهب العود يتماوج على وجوههم الأسطورية ، وظلت رأسى تقاوم أكفهم التى تحاول الوصول إلى فمى . وضح لى أنهم لايعرفون كيف يتصرفون معى فتماديت، وعندما انسحبتْ النار إلى إصبعى ، عويتُ . لكننى كنتُ قد أمسكتُ بالورقة . اختطفوها فتمزقتْ .أشعلتُ عوداً آخر وقرأتُ المزقة التى فى يدى . لم أفهم شيئاً .

ـ ماذا تكتبون؟

ـ هششش .

همس أحدهم :

ـ لاتصرخ .

وهمس الثانى :

- بصراحة . نحن لانثق فيك يازميل .

- لاتثقون؟

رد الثالث :

- قد تكون دسيسة .

- أنا ؟! .. أنا دسيسة؟

انسحبتْ نيران العود إلى إصبعى فعويتُ :

- أنا أتعلم .

وتوقف كل شيء .

تبادلوا النظر ثم سحبونى إلى الحائط وأجلسونى وأفهمونى أنهم يرون فى ملامحى الآن شيئاً قد يوحى إليهم بالثقة . كنتُ أرتعد . وكان البخر يتصاعد من جوفى ويخرج من منافذ رأسى . قالوا: أنت محموم .. أنت مريض .. فتملصتُ منهم ولوحتُ بالورقة .

- ماذا تكتبون؟

تبادلوا ذات النظرات الخرساء ثم تطوع أحدهم :

- هل نعتمد على مروءتك؟

هززتُ رأسى أن نعم ، فنظر باتجاه الباب ثم همس:

- بيان .

- هه ..؟

- .. ننوى تهريبه إلى الخارج .. فهمت؟ ..

بقبقتْ أحشائى فزحفتُ إلى جردل الماء ثم عدت إليهم وفى رأسى تطن كلمة لانثق .. لانثق . قلتُ :

- هو الحذر إذن .

هزوا رءوسهم بالإيجاب فملتُ بجذعى إلى الحائط ومن النافذة ، وعبر

القضبان ، رأيتُ السماء ملاءة بنفسجية كثيرة الثقوب . فأحسستُ بقدر كبير من الراحة .

* * *

قالوا إنهم لن يخسروا شيئاً ، وقالوا الجماهير الشعبية ، وقالوا المُلّاك ، وقالوا العمال هم مسامير النعش . وقلتُ هذا كلام حديد عليّ ، وقلتُ إن مخدومي يستغلني إذن وقلتُ زيدوني . وأيقنتُ أنني كنت ميتاً وحييت . ورحت أحدق في قضبان النافذة ، فيما أخذ صدري يعلو ويهبط .

أطل الحارس برأسه وقال : طابور الشمس .

نظرتُ إلى زملائي مستطلعاً فضحكوا ، ضحكوا ضحكاً حقيقيا ، ضحكوا ضحكاً كهذا الذي كنتُ أقدر عليه وقت أن كنتُ طفلاً . هتفتُ :

– أنتم تضحكون ضحكاً حقيقيا .

عندما هم أحدهم بالإجابة دخل الحارس وصرخ :

– طابور الشمس ياسفلة .

فنهضنا وتبعناه ، بالرغم من تيقني من أنهم يعرفون معنى التسمية، وأن جهلي بها هو الذى أضحكهم ، إلا أن عقلي المصدوم أخذ يطحنها عله يصل إلى سرها . عندما قَرُبَتْ درجات السلم الحديدى على الانتهاء ، ولاح باب العنبر المفُضى إلى الفناء تقهقر ذلك الذى كان أول من كلمني حتى قاربني وهمس:

– أنت الأقدم .. ألم تنزل لطابور الشمس؟

همستُ بدوري : إنها المرة الأولى ..

وأطلقتها : هل للشمس طابور؟

عندئذ صر باب العنبر وانسكب علينا لألاء شديد .. لألاء شديد وساخن . انطبقت جفونى فرفعتُ إليها كفى . وعندما دفعنى حارسنا وحارس الباب، كانت عيناى قد تعودتا هذا اللألاء الغريب الذى اكتشفتُ أنه يغمر كل شىء .

هتفتُ : ياألله .

الفناء يغتسل فى الضوء والمساجين يتحركون فى كل اتجاه . السور العالى والأسلاك الشائكة ومدخنة المطبخ . وهناك شجرة . وبين الشجرة والأسلاك يمرح سرب من العصافير .

فتحتُ صدرى للهواء الدافئ . فتحته وعببتُ منه حتى خلتنى قد انقلبتُ صرةً مملوءةً بدفء لذيذ .

هتف حارسنا : شهلوا .

ثم اجتاز بنا زحام الجنائيين ، وأدخلنا مربعاً سوروه بالدوبار و أشرطة الشاش .

– نصف الساعة وتعودون للزنزانة .

نظرتُ للسماء . زرقاء ، والعصافير تحط لتوها فوق الأسلاك ، والنسيم يهز أوراق الشجرة . بينما تجمهر المساجين من حولنا ، واكتفوا بالتحديق فينا وفى الهراوات التى يؤرجحها الحراس فى أيديهم ، فعرفت لحظتها أوجه الشبه بين العسكر وفزّاعَات الطيور .

. * .

جاءوا فى ذلك الصباح وأخذوهم . وكنا نهم بتجهيز الطعام الذى تسلمناه للتو . قلتُ لهم إننى سأجهزه لهم ريثما يرجعون . وبالرغم من شح الماء ، فقد قمتُ بغسل الفول والجبن وأضفتُ إلى الفول قدراً من الماء والفلفل الذى هَرَّبَه إلينا الجنائيون ، ثم وضعتُ القروانة على (التوْتوْ)

الذى أشعلته بعدما تأكدت من أن السولار الموجود به يكفى لعملية إعادة الطهو . تحولتُ إلى الجبن وأخذتُ فى دعكه بقليل من الماء وأضفتُ إليه كما تعلمتُ نقطاً من الزيت الذى كنا قد قشطناه من فوق العدس . بعد أن انتهيتُ غطيتُ قراونة الفول وقروانة الجبن برغيفين . وأخذتُ أتأمل الأشياء التى تحيط بى . وبالرغم من أنها جميعاً من الممنوعات ، فقد شعرتُ بالامتنان لهم والإعجاب بقدراتهم على المتعامل مع الجنائيين ومخالفة الممنوع ، والإتيان بأشياء مبهرة ، وإخفائها بطرق أكثر إبهاراً . غير أنهم لم يرجعوا . جاء ميعاد المقيال ووزعوا علينا طعام الغداء ، واستبدلوا جردل الماء ، وحل ميعاد التمام ولم يرجعوا .

قلتُ للحارس وهو يقوم بعملية التمام الليلي :

لم يرجعوا .

فزفر : أعرف .

ثم أوصد الباب . بعدها ، وجدتنى أصهل وأجرى بين الجدران وأركل الأبراش والبطاطين والجردلين ، وأنطح الباب وأتقافز إلى النافذة ، ثم هدأتُ وتعلقتُ بالقضبان ورحتُ أحدق فى فراغ الفناء والشجرة والمدخنة وأسلاك السور والكشافات التى تقطع الظلمة .

صرَّ المزلاج وفُتح الباب ودخلوا ببيريهاتهم وأحزمتهم وأزرارهم النحاسية .

قلتُ : اليمك فسد ولم يأتوا بعد .

قال أحدهم : لاتشغل بالك وتعال معنا

فانحنيتُ على أشيائى ألملمها . بادرنى نفس الشخص :

– أترك كل شيء على ماهو عليه .

فتركتُ المسموح والممنوع وخرجت معهم . هبطنا السلم واجتزنا العنبر والفناء وباب الوسط ، ووجدتُ نفسى بين المكاتب . أوقفونى أمام

أحد الأبواب ودخلوا إلا واحداً وقف يحرسني . بدا لي أنه متوتر مثلي قال : سيجارة . قلت : عطشان ، فنادى على أحد السجناء وطلب كوب ماء . وفيما أنتظره وأتطلع إلى الباب المغلق ، وأحدق في طلائه المتسخ كثير القشور ، إذا بالباب يُفتح لأجد نفسي في مواجهة اثنين جذباني بعنف وألقيا بي وسط غرفة خالية إلا من مكتب ومقعدين يجلس عليهما رجلان مهيبان ، أما الآخرون فكانوا يتحلقونني واقفين .

سألوني عنهم ، وعن التنظيم ، وعن مخدومي ، وعن ذلك الذي كنت أهتف بسقوطه . وأمروني بخلع الحذاء والسترة ، ونزعوا عني بنطلوني ، وقالوا أنهم سيجعلون عيني مطفأة سجائر ، وأظهروا خرطوماً وقالوا سُتنفخ، وجاءوا بكماشة وضغطوا على عضوي ، وإلى حلقتين بالحائط ربطوني وساطوني ، ثم فكوني وأمروني بالجري بين قبضاتهم ، ثم أوقفوني فوق علبة صغيرة من الصفيح وأمروني بعدم الاهتزاز، وبنفس الكماشة قالوا: سنخلع أسنانك. أفقتُ على صوت الماء يطش فوق جسمي ويتحول بخراً وغماماً يلف الأشياء فتتراقص أشباحهم فوقي . ميزتُ أحدهم ممسكاً بكوز يرش منه عليّ ، فأخرجتُ لساني ورحتُ ألعق شفتي ، وتمنيتُ لو أنهم دلقوا كل مالديهم من ماء في جوفي ، لكنهم لم يفعلوا ، وتركوني معلقاً من قدمّي ، وانصرفوا .

• * •

ساقوني إلى الحلبة المسورة بالدوبار وأربطة الشاش وتركوني تحت الشمس وحيداً إلا من حارس مسن وقف خارج السور معطياً ظهره لي . رأيتُ الريح إذ تهب وتأخذ السواد المتصاعد من مدخنة المطبخ وتنثره على الشجرة التي تدلى من أحد أغصانها خفاش نائم . قلتُ للحارس : إنهم يضربون بعنف .

وقلتُ : التعلم ليس بالأمر اليسير . وحاولتُ الابتسام إلا أن شفتى المتورمة آلمتنى .

قلتُ : لماذا لايخلصون إلا فى الإيذاء فقط؟ . وقلتُ : إن النيران التى فى داخلى بدأت تخف ، وإنى لم أعد أشرب ماء كثيراً . غير أنه ظل صامتاً ولم يرد .

رأيتُ الريح تشد نثار السواد وترفعه لأعلى ثم تهوى به إلى الفناء فسعلنا أنا والحارس والجنائيون . وفيما أنثنى لأخرج سعلة تحوصلتْ فى حلقى ، تخطى الحارس سياج الشاش وأنهضنى ثم ضرب على ظهرى فسعلت . بعدها خلع بيريهه وهرش صلعته وسأل : سليمة ؟ .. نظرت إليه فهالنى ذلك القدر الهائل من الحزن الذى يفيض من نظرات عينيه ، فيما ظل الهباب يتساقط علينا كالمطر ونحن نسعل . هتفتُ :

– أنتَ حزين .

فأدار وجهه . واجهته ، فإذا بالدموع تسيل على خديه .

– أنتَ تبكى .

قال : ابنى قال مثلك كلاماً غير مفهوم فأخذوه .

ربَّتُّ على ظهره مواسياً فانفجر فى البكاء .

صاح الصول من أقصى الفناء :

– انتهى طابور الشمس .

فتأبطتُ حارسى وتخطيتُ به سياج الشاش والجزء المتبقى من الفناء ، وفيما نهم باجتياز باب العنبر تمخط أحد الجنائيين طارداً عن أنفه ماعلق به من هباب ثم مال إلينا :

– كلنا فى الهوا سوا .

وانضم إلينا ودخل العنبر .

• * •

سمعتُ اسمي يتردد في العنبر ، وجاءني مسجون . هتف في وجهي : زيارة .. زيارة . عجبتُ ، فمن عساه يجرؤ على زيارتي ؟ .. جرني الحارس وسط عيون كثيرة وعبر بي باب الوسط وباب الزيارة ، وأدخلني تلك الغرفة . بعدها أوقفني أمام القضبان المحصورة بين ثلاث طبقات من الأسلاك المتشابكة . مَرَّتْ لحظة وفُتح في الجانب المقابل بابٌ دخل منه شخص عرفته من فوري . مخدومي .

قال : أبشر .. ستخرج .

هتفتُ: هه؟!

لعل عينيَّ كانتا تنزان بلاهة . هذا ماأوحت لي به ملامحه .

قال : أنت لاتضحك .

وسكتَ : .. عذبوك؟

وابتسم : .. أوكلتُ عنك محامياً .. ومال إلى السلك: أوحشتني خدماتك ومال أكثر : .. بدونك لاأعرف كيف أمضي الليل .

ثم أردف : .. المحامي يقول أنك ستخرج من أول جلسة .

ولشيء ما تركتُ السلك واجتزتُ باب الزيارة ، وباب الوسط ، والفناء، وباب العنبر ، وبطيئاً بطيئاً رحتُ أصعد الدرج إلى زنزانتي محاطاً بالمساجين .

(١٩/٩/١٩٧٦م) .

حكاية العم شعلان

مدخل للحكاية
وشىء عما كان فى بداية تلك الليلة

انطفـأتْ مـصـابيح المدينة ، الواحـد منهـا تلو الآخـر . وهناك ، عند حدودها الغربية ، حيث ظهر الهلال منجلاً مذهباً فوق البيوت المكللة بالسواد ، بان السجن . سور ومبنيان . تغطى قشور البصل الفضاء الفاصل بين السور وشون مصنع التجفيف . فيها تجوس قطعان من الماعز ، ومن ورائها راعيها يهش عليها فيصل صوته ، خافتاً غامضاً ، إلى الكوخ الطينى المطل على الطريق ، حيث يجلس شعلان محتبياً مثقل الجفنين والكتفين، وقد أمال غابة الجوزة وبدأ اللعاب يسيل من زاويتى شفتيه .

ارتفع صوت حارس ليلى : واحد تمام ..

فجاوبه صوت آخر : .. اثنين تمام .

فتح عينيه ببطء فاهتز العماص ومُطّ بين الرموش وارتعش فى ذبذبات دفَّت لها الذبابة الراقدة فوق صدغه وأرعشت بجناحيها ولم تطر . قال بصوت مسموع كعادته حينما يكون وحيداً أوغير وحيد : هنداوى ياابن الجحبة[1] .. صوتك إملعلع وعيونك إمفنجلة .

يعلم أن هذا الطقس الليلى مفروض عليهم لإشعار المساجين بأنهم متيقظون .. والضباط أيضاً، لكنه بالأكادة يعلم أنهم لايزعقون بكل هذا

---

(١) هنداوى : عسكرى خفيف الظل متنور ، لكنه غلباوى ولكاك وصوته مسرسع وبيتكلم كيف النساوين .

العزم إلا لتسليك حلوقهم من بلغم الجوزة . قديماً سمع أن المامور امر بجلد أربعة منهم لأنهم لم يتنادوا لمدة ربع الساعة . وحيما كشف له عبدالمولى[1] عن جسمه الدامى وطلب منه أن يكتم جروح الكرباج بشوية بن، ضحك .ضحك كثيراً وقال : «والله وشفت فيك يوم ياواكل ناسك».

ماءت عنزات جديح[2] فبصق ثم أسند الجوزة إلى السلم الخشبى الموصل إلى الصندرة حيث الكراكيب التى لم يرها منذ تراكمت فوقها كيزان الفاصوليا المغطاة بهباب الوابور القديم . فمنذ أن مر عليه تاجر الخردة واشترى منه مجموعة من تلك الكيزان ودفع له خمسين قرشاً مرة واحدة ، وهو يمنى النفس بقدومه ، وظل يحتفظ بكل علب الصفيح الفارغة التى يرميها العساكر عند كوخه ، ومايستخدمه منها فى عمل الشاى . « صحيح امهببة وكيف سواد الليل ، لكن التاجر أخذها ومفتحش خشمه» . هش الذبابة ببطء فحلقت ثم عادت ، وكان قد أغلق جفنيه فلم يعد يحرك يديه .

باب العيش وكيفية أكله

فصل عما يدور داخل الكوخ أحياناً

- ١ -

- شاى ده واللاجشر عدس ياشعلان؟

- رص المعسل ياعجوز يامجفع .. رص .

(١) عبد المولى : تغزو مغامراته مع المساجين الكوخ كل ليلة فيتندر بها الزبائن وسط سعالهم ومخاطهم ودوشة الوابور ، ويصهللون بالضحك إذا ماأعلن شعلان عن رأيه فيه بعبارته الثابتة وشفته المقلوبة «أباى عليك زبون نجس»

(٢) جديح : عرباوى معه كم عنزة وكلب . من أصل حجازى ، ولا يكثر من التردد على عشة شعلان لأمر ما غير معروف .

- مالك؟ .. ساهمان ليه؟ .. شاويش يوسف .. بدنا نجوز شعلان .
- وى .. الراجل الكركوب؟
- وه!! .. مش راجل ملو خلجاته
- صُح .. صُح .. نجوزه عنزة من عنزات عم جديح .
- هع .. هع .. هع ..
- هأ .. هأ .. هأ ..

- ٢ -

من طبع شعلان السكوت .. ساهم في غالب أحيانه . يجلس أويقف أويتحرك على تهدمه وانحناءة ظهره ، كأنما بفعل زنبركى صدئ . لكنه أحياناً مايكون شديد التوتر . وغالباً مايراه الزبائن وقد اسود حجرا عينيه من طول السهر . فى مثل هذه الحالات يعلق بصره الكليل بفتحات المبنيين وقضبانهما باحثاً عن شيء ما .. مكان ما .. جواب لأمر مايحيره . انحنى يوماً على هريدى وجذب رأسه إليه : هريدى ياولد العم ، فى العشية سمعت عنديكم صريخ هز السما وهيش جشر البصل . جول لى ياشيح بالأمانة .. إيه اللى بيحصل عنديكم؟ » .

قول مأثور: « اسمع ياشعلان .. كل عيش واجفل خشمك » .

فصل فى المقايضة وأسبابها :

يعرف بالضبط ميعاد وصول عربة المتعهد . عند تعامد الشمس فوق العشه أوبعد ذلك بقليل. أبداً لم تأت قبل ذلك . ويعرف بالضبط ماتحضره، الكرات والفجل، الفول والعدس، القلقاس الباذنجان، والكوسة احياناً. اللحم فى يومين اثنين. فى المواسم تزيد معلبات الفاصوليا أومكعبات العجوة المسوسة. ينال مافيه النصيب من المتعهد أومن بهنسى

سائق االعربة [1] لذا فالعشة عمرانة، ورائحة الطبيخ الملكى تجر العسكر من خياشيمهم. لكن يوم وضع بهنسى الحشيش فى كرسى المعسل وشخط طالباً قوالح حامية، قامت الخنافة التى عرف بها أهل البر والبحر بعدها انقطع الرزق. حتى الواد حميدة ابن الملعونة [2] لم يعد يرميه بالصيب ولأن العساكر من أهل البر فقد عرفوا بالأكادة حالة شعلان الشين واتفقوا بدون ورقة. الشاى والبن والجوزة مقابل الفول والعدس وعلب الفاصوليا وماتجود به الأنفس. ولأنهم لايدفعون الجرشانات باستمرار، ولأنه لايفتأ يردد لهم «جرشناتكم دى من حرام ياأولاد الأبالسة» فقد قام بحسبة بسيطة ووجد نفسه الرابح فوافق.

باب المكان وكيفية الاستمرار فيه

فصل عما كان بينه وبين المأمور

بعد أن تغوط فى الحفرة التى احتفرها خلف العشة بأمتار، وتفل وألقى بالحصيات التى استجمر بها، ثم سحب سرواله وربط الدوبارة. بعد هذا انحنى ليلتقط كوزاً عثر فيه ففاجاه صهيل جواد. نظر فأُلجم.

المأمور بشحمه ولحمه ونياشينه. حصانه المبقع بالأحمر والأبيض صبغته الشمس الغاربة بلون بنفسجى غريب. لم يملك إلا أن يحملق بعينه الكليلتين فى بياض وجهه الحليق وحمرة شاربه الرفيع بمزيج من الاندهاش والتوجس.

– سعادة الباشا المأمور!!

---

(١) بهنسى : حشاش قرارى . هزيل ومقروض وفى حنجرته ضفدعة .

(٢) حميدة سايس عربة المتعهد . ولد مفعوص وأصفر . لكنه ، باعتراف شعلان نفسه ، لهلوبة ومخه نضيف ،وبندرى مدردح .

- إنت مين؟.. بتعمل إيه هنا؟

انجذبتْ عيناه للالتماعة البنفسجية التى برقت فوق أحد المهمازين المثبتين بالحذاء طويل الرقبة.

- ياسعادة الـ...

- إنت تمشى من هنا.

ارتفع قائما الحصان الأماميين .

- ياسـ....

ومثلما تنشق الأرض، تنخسف الأشياء، أوتفور النيران.. مثلما ينهبد الجبل، أحس بنفسه ضئيلاً إزاء الصهيل المرعد وتقهقر القائمين الخلفيين وانتصاب الجسم الأمرد. تجاوزت رأس الحيوان سطح العشة، وضرب بقائميه الأماميين الهواء.. «إيه ده؟!».. هكذا انبثق السؤال فى ذهنه ، ملجوماً، مكتوماً، لاصوت له، ومع هذا له فرقعة السوط.

ومثلما يحدث فى الكوارث والمصائب جليلة الشأن، حينما تذوب العداوات والفواصل، ولايبقى إلا أمران: إما حياة وإما موت. وربما ليؤكد لنفسه أنه أمام حصان، لاغول أوملك من ملوك الجان، سحره هذا المأمور بما يعرفه من أسرار، وثب إلى اللجام وأمسكه. ربما خوفاً على المأمور من السقوط الخطر، وربما ليثبت له أنه مامن جان أوحصان يقدر على إخافته أو إرهابه.

غير أنه فوجئ بنفسه دائراً فى الهواء، ولذعات حادة ساخنة تصيب وجهه ورقبته وتسقطه تحت السنابك. انحرف بجسمه ليلمح من خلال الغبار المثار طرف المهماز وقد اندس فى بطن الحصان الذى أرغى وانفتح شدقاه من شَدة اللجام، فأخذ يدور من حوله مثيراً الغبار، ومن فوقه السوط وجسم المأمور، ونجوم باهتة بدأت تظهر فى سماء غير مكتملة العتمة.

- يا سعادة الباشا.. يا سـ... يا.....

تناثر لعاب الحصان فوق وجهه فاختلط بالتراب وخيوط الدم.

- يا شاويش يوسف.. إنت ياشاويش زفت.. هات عسكريين وارموا الكلب ده بعيد.

امسكوه، أولاد القحبة، والقوا به هناك، على الشريط الأسفلتي، وسؤال يتفتق في ذهنه: «هو أنا كلب حربان؟».

وفي زحمة هذا كله رأى الدموع وهي تفر من عينى الشاويش يوسف.

فصل الاسترحام ومابعده

- ١ -

مع حلول العتمة خرج إليه الصول شمندي[1] مظهراً العطف ومساوماً: وابور من الاتنين واسترحمه علشانك.

وظل طيلة الليلة يحملق تجاه عشته والأشياء الملقاة خارجها منتظراً نتائج الاسترحام، بينما أخذ كلب عم جديح يعوى طوال الوقت.

- ٢ -

- ههع.. ههههع.. كيف الجربوع كان شعلان عم يتلوى.

- يابوووي... ده راجل جادر.

- اباى ياشعلان الكلب.. داانت بتسوى هوايل ياواكل ناسك.

(١) الصول شمندى: غالبًا ماكان يرسل إليه طلباته من الشاى والقهوة وهو جالس أمام بوابة السجن. أحيانًا يدفع ثمن ما يشرب وأحيانًا لايدفع. إن تصادف والتقيا حياه بما يشبه القرف. ولم يدخل عشته أبدا.

- جـربوع صُح، لكنه جـربوع عـفي.. وعـر مكار.. أباى منك ياشعلان.. أباي.

ولم يلحظ أحد فى غمرة الضحك اختفاء أحد الوابورين ولا النظرة الأسيانة الضائعة فى تغضنات الوجه الشائخ وعماص العينين.

فصل عن الكرباج وفوائده

ضحك عبد الحفيظ[٢] وقهقه حتى امتط شاربه المهدل فوق شفته العلوية، وبانت فتحة زوره بئراً غويطاً بلاقرار. بعدها فرقع الكرباج فى فضاء العشة وقضم بأسنانه البنية آخر «هع» خرجت من جوفه. أغمض عينيه نصف إغماضة ثم فح: الكرباج.. الكرباج يلين كل دماغ عاصية ويحل عقدة كل لسان.

من يومها وشعلان يتشدد فى محاسبته على مشاريب الشاى وكراسى الدخان ولايرضى معه بالمقايضة، لذا قل تردده على العشة ثم انعدم.

باب الدخول والخروج
وشيء عن الحجر اللابد فى الحشاشي

فصل عن التراحيل:

يأتون صباحاً. يأتون ظهراً. يأتون فى كل وقت. فى عز الهجير. فى عز البرد. من البندر وإلى البندر. يُفرغهم البوكس على الأسفلت ليبتلعهم

---

(٢) عبد الحفيظ: يعلم شعلان أن عبد الحفيظ هو أعتى الحراس بالداخل، وأنه يملك من السطوة مالا يملكه المأمور. ويعلم أن زملاءه يسمونه فيما بينهم بكلب المأمور الأجرب، بينما يطلقون عليه فى هزارهم معه لقب عبد الحفيظ كرباج، ومارلوا به حتى اضحت هذه التسمية علماً عليه. ويعلم شعلان أيضاً أن عبد الحفيظ «فجير وعنده مرة وتلات عيال مسهرينه الليل» وأنه يفعل هذا «علشان يترجى ويزيد جرشين»، لكن هذا لم يحل بينه وبين غضبه عليه.

ثانية. حيثما يظهرون بملابسهم الكاكية وأحزمتهم العريضة، يظهر معهم عدد من لابسى الجلاليب واللبد. دائماً نصف العدد. فى البداية أدهشه وجود عسكر بلوك النظام ببنادقهم ورشاشاتهم ومسارعتهم الدائمة بمحاصرة العربة والانتشار على جانبى الطريق الترابى حتى باب السجن.

قد تشتد حدة الحماس وقد تفتر، لكنهم أبداً لايتخلون عما يفعلون. بعد مُدة ألِفَ هرولاتهم، وكثيراً ما ناولهم الشاى وناولوه نقودهم.

مايحير شعلان حتى الآن أن الضباط يسبقون - بشكل دائم - الموكب بمسافة كبيرة، ولايلبث الباب الرئيسى فى كل مرة أن يبتلعهم، لتقف الترحيلة بمساجينها وعساكرها وصولاتها أمام عشته انتظاراً وقلقاً. غير أنه، ولايعرف السبب، يشعر إزاء هذا كله بالراحة. قطع بهذا لنفسه، وأفصح عنه لهنداوى «مش علشان جرشناتهم.. لاياهنداوى ياخوي.. لكن يمكن علشان بيتاخروا فى دخول المخروب اللى انتوا فيه ده». راحته تكون أكثر، وهذا ماصرَّح به مراراً، لوغار المسلوع، الأصفر، مجدور الجفون، منتفخ العينين مثل الضفدعة، البحراوي، واكل ناسه الذى لايستطيع أحد من عسكر التراحيل، ولاهو نفسه، إلا أن يسبق اسمه برتبته، البلوكامين عبد الودود «آه منك ياعبدالودود يابلو كامين.»

فصل عما كان بينه وبين البلوكامين «عبدالودود البحراوي»:

«الكافر». لم يجد فى ذهنه مايليق بعبد الودود البحراوى غير هذا الوصف. فهو الوحيد من عسكر التراحيل الذى لايرضى ولوانطبقت السما على الأرض، لأى مسجون برفقته بأن يجعمز شوية ويشرب كباية شاي. حتى فى تلك اللحظات التى تبتلع فيها البوابة عجرفة الضباط. فى مثل هذه اللحظات، وفيها فقط، وبالتحديد فى البداية، حينما يكون المساحين ضمن الموكب، كان يأتيهم مهرولاً بالكبابى والكوز المهبب وجرطاس

السكر. «ابعد غادى عن المساجين ياشعلان». ليش ياولد خالتي؟». «أنا السؤال معايا ممنوع».

الأدهى أنه يمنع حتى عسكر التراحيل من العروج عليه؛ فقط حينما يكونون بلا مساجين. «ليش ياضوى [1] بحراوى أصفر يتحكم فيكم كيف عنزات عم جديح؟». «شرطانه ياشعلان.. شرطانه». «الكافر».

أكثر من مرة عزم على أن يعامله مثلما يعامل عبدالمولى وعبدالحفيظ وألا يجعل «لسانه يخاطب لسانه واصل»، لكنه لشيء ما خفي، لايعرفه، لوعرفه لكان بالأكادة قد استراح وأراح، كان فى كل مرة يراه يلح عليه «ليش ياولد خالتي؟.. ليش؟».

يوم حلف عليــه بأيمانات المسلمين، وبالنبي، ومن نبى النبى نبي، «ليجعمز الجدع المسجون الهزلان ده شوية ويشرب كباية شاي»، يومها جحظت عينا عبد الودود الكافر كأنما رأى عزرائيل بشحمه ولحمه، وارتعشت جفونه المجدورة لحظة سُرَّ لها شعلان وأحس بشيء يرقص بداخله. غير أنهما عادتا لسابق ضيقهما وأصبحتا كعينى قط خماش «دول زى الحرباية ياشعلان، خبث الدنيا كليتها فيهم».

«الخبث ماله ومال اللحم يا أبو خشم كبير؟». «إنت مخك مقفول ومش حاتفهمنى خالص».

يوقن فى قرارة نفسه بأنه بالفعل يملك عقلاً مقفلاً، وإلا ماانقلبت حاله إلى ماهو فيه الآن. غير أن شيئاً ما يهتز فى داخله كلما ردد البلوكامين عبدالودود البحراوى هذا الكلام أوبعضه، كأنما يزيح مياهاً متداومة ليكشف له عن حجر ثقيل لابد فى الحشاشى كيف الجبل وأتقل.

---

(١) الضوى عسكرى من عسكر التراحيل ، دائم التأفف والشكاية ، لكنه أيضًا دائم الاستكانة .

باب الالتماعات
وإلماحة عن ذلك الشيء اللابد فى الحشاشي

فصل عن المرأة التى أخذت تبكي :

كانت السماء فى لون السور رمادية حينما خرج من عشته فرآها. كتلة سوداء تترنح تجاهه، ومن خلفها ذراع الشاويش يوسف تهتزفى ارتدادها إلى جنبه، وحبات البرتقال تتدحرج من السلة الملقاة لتوها. انفجر: أبّاااه؟! وتلقفها بذراعيه وكاد يسقط: عم تضرب نساوين يايوسف؟.. لكن يوسف استدار منفضاً يديه وابتلعته البوابة «كيف عملتها ياشاويش يوسف وفين جلبك اللى بلون الحليب؟». أجلسها فوق الكليم وأشعل الوابور فأخذتْ تبكى بحرقة، وانحلت ضفيرتها وبانت من الطرحة. شيء مافى ملامحها يقول له بأنها غريبة عن المكان. قدَّم لها كوب الشاى ومازال بها حتى أخذته. تأملها وهى تحتويه بكفيها حتى لايسقط من شدة نشيجها ثم سألها:

– بالأمانة عليك يابنية تجوليلي.. إيش جابك اهنه؟

– وليدى ياباالحاج.. ابني.

– إهنه؟

– اللى فى مصر قالوا لى كدة.

– مصر؟!.. ياه!! إنتى من فين يابنية؟

– من الشرقية ياباالحاج.

– شرجية؟!

– والنبى يابا الحاج عايزة أشوفه واطّمن عليه.. اتوسط ليّ والنبى ياحاج احسن بيقولوا ممنوع.

– ممنوع؟

وسهمت عيناه، بينما عادت المرأة للبكاء من جديد.

فصل عن هذا الذى لم يجد له وصفاً أو سبباً

- ١ -

اقتحم الغبار العشة وتقلقت الكيزان. من تحته اهتزت الأرض، ومن حوله تطايرت قشور البصل وطاويط وفراشات غبراء شعثاء. «هبوب الخماسين؟!». فزَّ إلى الباب فدهمه المنظر. الخيَّالة تراصوا بالكاد على جانبى المدق الواصل بين البوابة والأسفلت. سحابات الغبار لاتزال تتداوم، وقوائم الجياد لم تستقر بعد. على بعد شبر واحد منه تراقصت ثلاثة ذيول بمؤخراتها.. ومن خلال تكسر أشعة الشمس الوليدة وزعابيب الرمل المثار خايلته أشباح عسكر بلوكات النظام واقفة هناك خلف تلال قشور البصل، سوداء متراقصة، وثمة التماعات تظهر لتختفى تصدر عن زيادات رفيعة ميزها بأنها أسلحة. بنادق ورشاشات.

– أبّاي!!

بصقتهم البوابة طابوراً طويلاً مهلهلاً سد الفراغ الواصل بين صفى الخيالة. للحظة، وبتأثير المزق كالحة اللون، خيل إليه أن موجة من البحر المالح انفجرت من خلف السور فاقتحمت كل شيء. إلا أن الذعر الناهش فى العيون أيقظه بسرعة. «يابوووي!!» لأول مرة يرى كل هذا الجمع.. ولاقمقم سليمان بقادر على حبس كل هؤلاء.. راح يمسحهم بعينيه الكليلتين. قليلة هى الأحذية التى رآها فى أقدامهم، كثيرة هى الأكتاف العارية. وبالرغم من رءوسهم مجزوزة الشعر، وجلودهم الباهتة «كيف الشمع» إلا أنه حكم بأنهم شبان «كيف الورد وأنضر».

- ٢ -

لايدرى كيف حدث هذا ولايعرف من أعطى الإشارة. مايعرفه فقط أنه عندما تحرك بياض القوائم ورفع بصره إلى الأعنة سريعة الاهتزاز، اكتشف أن تلك الأشياء التى يمسك بها الخيالة، والتى بدأت ترتفع وتدور فى الهواء، لم تكن إلا كرابيج.

...

...

...

صفرة الرمل والبقع الحمراء ومزق الملابس وفردة حذاء.. وهنداوى الواقف أمام البوابة المواربة.

– هنداوي.. ليش بتعملوا فيهم إكده؟

– هش.. إجفل خشمك.

– أبّه.. ماتجول ياولد العم.. كفرة؟

– أسخم.

– جول ياولد العم..

– اسكت.

– جول وبل ريجي..

– شعلان...

– بالأمانة ياشيخ.

– سياسيين.

بصقها وانسرب إلى الداخل، فيما جذب انتباهه شيء أبيض صغير يتوسط واحدة من البقع الحمراء. انحنى عليه فوجده ضرساً مكتملاً، ولم يلحظ أن كفه قد لوثها الدم.

باب عما كان فى الهزيع الأخير من تلك الليلة وخاتمة

فصل عن الفتى ذى الشعر المجزوز والوجه الشمعي:

فتح عينيه فوجده أمامه، شاحباً ممصوصاً محوطاً بصفرة يعرفها.

دعكهما بسرعة فأزاح العماص عن سواد النني ليرى الرأس المجزوز والوجه الشمعي والعينين اللتين تشعان بريقاً ألجمه. أمامه شفتان تنفرجان وتنغلقان ولاتنطقان بشيء. رآه يرتمي بظهره إلى الحائط وسمعه يشهق محاولاً ترتيب أنفاسه فأزّتْ حنجرته فيما يشبه الهواء.

لم يفهم. في البداية تزاحمتْ أمام عينيه مؤخرات الخيول وذؤابات الكرابيج. «أباي». وتلألأ الضرس داخل بقعة الدم. توقع اقتحام البلوكامين عبد الودود للعشة وفي يده حزامه المسلوت من وسطه لينهمر به على المسكين «اللى عم ينتفض قدامه كيف الزرزور المبلول في عز طوبة». من البعيد جاءه ثغاء عنزات عم جديح متقطعاً مكتوماً، ولم يلبث الخلاء أن أرعد رعدة اهتز لها باب العشة المفتوح. رعدة بددت زناخة مخه ودفعت بالحقيقة واضحة مجلوة أمامه.

كانت كلاب السجن تنبح.

«الصندرة».

قالها وتعثر بالوابور في طريقه إلى الباب. أغلقه. تسلق الشاب السلم قفزاً، ووضع هو شنكل الباب في الزردة ورفع رأسه. لمح قدمي الشاب. عاريتين ومشققتين. سأل «تبع سعد؟»،[1] لكنه كان قد اختفى بالصندرة وبدأت قعقعات الكيزان تتردد. ومن النافذة ظهر الهلال منجلاً مذهباً يتوسط مبنى السجن.

فصل عن الجود بالموجود ودباشك الحلاليف

من المخلاة سحب بيده المرتعشة الرغفان وحتة الجبنة القديمة. كيف المية في طلمبة الحاج محمود أبوعيساوى كانت دفقات الدم في عروقه. تحسس البلاطة التي تخفي الكوة المحفورة في الحائط وأخرج بصعوبة علبة فاصوليا ومكعب عجوة. «صحيح إمسَوّسَة وحالها شين، لكنها حاجة تصلب

(١) سعد زغلول ولا يعرف شعلان أنه مات من زمن.

عوده الهزلان والسلام» عثرتْ يده بدحروجة فعزم لو وجد الوقت لسلقها له. «أباي.. مين.. مين يصدق اللى بيحصل ده؟».

ظهرتْ أشباحهم بنافذته، تمر مهرولة، وأصوات اصطدام نعالهم بالحصى والحجارة تملأ عليه عشته. ميز سعال عبد المولى النجس وزحير عبد الحفيظ كرباج، اصطدمتْ بالجدار بعض الدباشك وسقط أحدهم بالخارج. «ياحلاليف.. ياواكلين ناسكم». تحسس خلجاته وأمسك بالزعبوط واللاسة.رفع رأسه باتجاه الصندرة.

«بالزعبوط واللاسة دول يفط من الجن الأزرق»، ثم أمال القلة فوق الكوز المهبب واستعد لعمل الشاي. لودخلوا عليه سيعزم عليهم بالكبابي. أعطى الوابور بمبة. دس السكر فى الكبابي. «آه لو انهد حيل الحلاليف أُمّات إمخاخ طقة.. على طول حاخده لحُنّ أمان.. هناك.. ورا شون مصنع التجفيف.. بعد خيمة عم جديح وخور العوايضة». «لكن ليش ياولدي؟.. ليش كل اللى بيحصل ده؟». «مش تجوللى ياهنداوى وتبل ريجي؟».

إلا أن الباب سقط ووجدهم وكلابهم أمامه.

– عم تتحدى الحكومة ياشعلان؟وانقضوا على السلم والصندرة.

خاتمة:

مابين باب العشة وبوابة السجن، عبر المدق الترابي، كان خطان عريضان تتخللهما الدماء وآثار أحذية ثقيلة. وعند البوابة المفتوحة على آخرها أُلقي الجسدان. حمحم الحصان وهبط المأمور. غرس عصاته الرفيعة فى الجسدين، المتهدم ثم الفَتِيّ. أزاح العمامة المفكوكة بطرف العصا، وبحذائه حرك رأس الشاب. دار حولهما، ثم رفع رأسه إلى طبيب السجن مستطلعاً سر الدموع التى تترقرق فى عينيه.

(٣/١١/١٩٧٧م).

عصف الريح؟..
لا.. هزيم الوتر

- ريم انفجر عن آهة
- فتق إربي
- ١٩٧٧

ريم انفجر عن آهة

لادخل لأحد منهم فيما حدث، لكنه حدث. فجأة وجدوه أمامهم. فُتح الباب وانزلق الترولل فإذا به تحت أيديهم. لايمكن أن يكون هو. لكنه بالفعل هو. الوجه المغضن والشعر الأجعد والشارب الذى طالما اهتز فوق الشفتين الهازئتين. هاهو ذا يدخل عليهم بعد تجهيزه. شفتاه الآن مطبقتان. منهما تفوح رائحة النتن وحولهما ريم له فقاقيع. قالوا اهبطوا. طوارئ .. فهبطوا.. تعقموا وهرولوا . أزَّتْ الترابيزة إذ ينقلونه من الترولل إليها. المصابيح مطفأة فوقه تماماً، والأجهزة على حواملها. كالعادة تم التأكد من التوصيلات.. سليمة وجاهزة. أصابعهم فى القفازات وشعورهم تكبسها الطواقي، وبالأقنعة تلثموا فلاتظهر من وجوههم غير العيون المفتوحة إلى آخرها. من داخل المساحات المحصورة بين خضرة الطواقى وخضرة الأقنعة تحملق. الدهشة فيها مخلوطة بالامتنان والضيق وعدم التصديق. فيها أيضاً تمددتْ شعيرات أحقنها الغضب فانفجرتْ أطرافها وكست البياض باحمرار الدم.

أى الأجزاء فى هذه الكتلة المستكينة شوه روح دكتور عزيز؟ القوة التى كانت تتدفق فى هاتين الذراعين المخفيتين تحت الملاءة فتلكمان وتسوطان، أين هى؟.. أى شيطان أمرد رفع الكف الغليظة التى تبين أظافرها وهوى بها على صدغ أم الدكتور شوقي؟.. وأى قدر ساخر أتى به إليهم؟ هكذا.. فجأة.. كالخبطة على اليافوخ، أوكاللقية المتمناة تهبط من علٍ فإذا بها ملك اليمين؟.. دار أكثر من دماغ، وترنحتْ جذوع، ساقا علية

تداعتا فسندتها فاطمة، وعامتْ عينا دكتور حسين.

لم يتمكن دكتور حسين للآن من تعويض المكتبة التى صادرها، وزوجة دكتور محمد ماترال تبكى أطقم الصينى التى هشمها والمراتب التى مزقها. واحداً واحداً استدعاهم. لم يترك منهم أحداً إلا أهانه. رماهم على الدكة أمام باب مكتبه والقى بهم فى الحجز. دكتور حسين عاد إليهم بعد أسبوع من الغياب يعرج. أى كابوس عاشوه بسببه ؟ هذه الأصابع أوصت بنقل دكتور أشرف، ورفت سعيد التومرجي، واعتقال أحمد وهو بعد مجرد طبيب امتياز. هذا الفم الذى يحف به الريم أمر فتكسرت أصابع الدسوقى أفندي، وتشرمت أسنان دكتور صموئيل، ومات فى بطن الحكيمة علية جنينها.

لم يروه أبداً ببدلته الرسمية. فى التيشيرت أوالترينج سوت يهبط من عربته أويصعد إليها. دائماً محاط بأصحاب الصدور والزنود المفتولة. منذ رتبوا لاستضافة ذلك الاجتماع النقابي، الذى لم ينته على خير، وهو جاثم فوق صدورهم. حفاش لايخرجه حتى الزمر البلدي. المديرية لم تفعل شيئاً. الوزارة لم تقدر عليه. لما كتب الدكتور أشرف لمن هم أعلى، استدعاه وألصق ماكتب بعينيه. فَضَّ المظروفات أمامه ليريه أنها وصلته هو ولم تصل من كان يقصدهم. بعدها أمره بابتلاع ماكتب ثم نقله إلى أبعد مكان فى أبعد محافظة.

صدر الدكتور شوقى كور حداد. من تحت القناع ينفث لهباً وحريقاً. عينا دكتور محمد متقدتان، وأصابع دكتور رمزى متوترة فوق أنبوب التخدير. هو الذى رافق دكتور عزيز إلى حيث هو الآن. على قدمه العرجاء ارتكز دكتور حسين، وأوجعت فاطمة القَرصْة التى نالتها منه عندما تخيل أنه يلاطفها، فيما اهتز ضب دكتور صموئيل الصناعى وكاد يسقط. الفرصة المواتية حانت. زملاؤه فى الخارج موزعون بين متغطرس

وخجل. تدل عليهم الطبنجات تحت آباطهم وفوق خصورهم. زوجته وأخته تبكيان لصق الباب، وابنه يقطع الردهة جيئة وذهاباً. أما المدير الإدارى فقد انتهى منهم وذهب إلى مكتبه. لعله بهذا يريح من بالداخل. أخذ عليهم الإقرار وحصل منهم على الموافقة. جميعهم وقع، فالجراحة بالحتم دقيقة وخطرة، وهم فى الداخل مطمئنون لذكاء المدير الإدارى ومهارته.

شوقى ينظر إلى صموئيل، ومحمد يتابع اهتزاز أنبوب التخدير تحت قبضة رمزي. حسين يخفى بجسمه جهاز دياثيرمي. به ستكوى شرايينه المذبوحة. ليتها تبقى مذبوحة. عينا فاطمة الآن على الجفت، ويدا علية تمسحان على الفوط الجراحية. أى شيء تفكرين فيه ياعلية؟.. لماذا تتقلص أصابعك فوق الفوط؟ فوطة واحدة وضغطة تكفيان. ربما كف واحدة. إصبعان فقط إصبعان.. هل سيتركونك تفعلينها وحدك، أم سيسابقونك إليه؟.

صور الأشعات معلقة بالمشابك، والبلانشيطة عليها نتائج التحاليل وقياسات الضغط. التشخيص جرح نافذ اخترق الحجاب الحاجز وأحدث تهتكاً بالرئة، لصق القلب، القلب الذى هو حجر وأسمنت. شخيره خافت وجفونه ترجف، والدم يبقع الملاءة.

لاتهم أسباب قدومه. معرفة الطاعن غير مهمة. فعلته التى أوجبت طعنه يمكن تخمينها، لكنها أيضاً لاتهم. فقط هوهنا. ليس هناك ماهو أهم. انجرافة خفيفة للمشرط، حزّة يسيرة لشريان أووريد، تأخير فى ضخ الأكسجين، اتير زائد، أوحتى نزع لفيشة الكهرباء.. أمور كلها ميسورة ومتاحة.. لن يعاتبهم أحد، لن يسالهم سائل، ولن يجرؤ مخلوق على رفع عينيه فى أعينهم.. لكن الريم المحيط بشفتيه انفجر عن آهة، آهة خافتة واهنة، لاتكاد تسمع. ربما كان حفيف هواء انسرب من الشفتين

وارتطم بفقاعات الريم ففجرها، لكنهم سمعوها هى والأخرى التى تبعتها. من جبهته أطلَّ الموت. صفرته انحدرت إلى الوجه كله. أفاقوا. فوقه تقاربت رءوسهم، وفى هبة واحدة تحركت أياديهم واتسعت عيونهم. أضاءوا المصابيح، أوصلوا الأكسجين، أدخلوا أنبوب البنح، وأداروا الأجهزة. ومن فورهم اجتهدوا لهزيمة الموت الذى يحاول خطف الجسد الراقد بلا حيلة تحت مباضعهم.

(١٩/١٢/١٩٧٨م).

فنق إربي

انحدرتُ من الزقاق خفيفاً، وقفزتُ من الدرجات الحجرية إلى الرصيف. أسفل منى نمل نشيط. وأمامى الطريق العريض والمساحة الخضراء المسورة بالسلك الشائك. تخطيتُ ثلة من الجنود يفتشون رجلاً وقفزتُ من فوق السلك. عبرتُ الخضرة إلى نافورة الميدان. بركة النافورة على غير العادة مزدحمة بالأوراق الطافية. التقطتُ واحدة. كانت المنشور الذى أُغرقت به شوارع المدينة منذ الصباح.

مرق عصفور عبر رذاذ الماء وحط أمامي. نفض ريشه بسرعة وحلق. أقبلتْ فتلقفتُ كفيها. شدنى شحوب وجهها فأجلستها على حافة النافورة رنوتُ إلى وجهينا المتماوجين على صفحة البركة وقد أخذ الرذاذ يخزهما، فإذا بهما ينبعجان، ينكمشان ويمطتان. تضاحكتُ إلا أن وجهها الذى أشاحت به عنى ظل على شحوبه. مددتُ إصبعاً إلى وجهها وأدرته نحوى فهالتنى ارتعاشات شفتيها والانضغاطة العصبية لذقنها .احتويتُ وجهها بكفَّى فارتعشا ولمحتُ فى عينيها الدموع إذ تنبجس. مسحتُ وجهها فَجَرَتْ لعدة خطوات ثم توقفتْ ليأخذ ظهرها كله في الاختلاج. اندفعتُ إليها فأدارتْ رأسها نحوى وأجهشتْ:

«بابا ياعمر.. بابا».

.*.

قبل أن ننعطف إلى الطريق المؤدى إلى الشركة التى يعمل فيها والدها استوقفنا أمين شرطة يجلس على موتوسيكل. سألنا:

«إلى أين؟»

أشرتُ إلى الطريق وقلتُ:

«نمشى فى هذا الشارع».

قال: «المشى من هنا أفضل»، وأشار إلى الطريق الموازى وابتسم. حاولنا تجاوز المتزاحمين لكننا انحشرنا بينهم. بعضهم يشده الفضول، وبعضهم يحاول أن يمر، ومن فوقنا تزاحمت الرءوس بالشبابيك والشرفات. توقفنا والتفتنا إلى الطريق الذى منعنا من السير فيه. عرباتهم تقف على أمتار من مدخله، وجنود الأمن المركزى بخوذاتهم ودروعهم وخيزراناتهم يتراصون فى صفوف ثلاثة. بينهم حملة بنادق ثُبتت فيها القنابل المسيلة للدموع، وأمامهم قواطع حديدية تسد الطريق، في البعيد، ثمة زحام ونقاط كاكية تهرول. جذبتنى من يدى وتدافعنا فى الطريق الذى أُمرنا بالمشى فيه. هتفتْ:

«أعرف طريقاً قصيراً».

وأدخلتنى فناء بيت له بابان لأجد نفسى فى طريق ضيق مرصوف بأحجار البازلت. جرتْ بى معظم الطريق ثم توقفتْ ريثما نلتقط أنفاسنا، فأيقنتُ أننا قد اقتربنا. مشينا بتؤدة وانعطفنا عند أول مدخل لنجد أنفسنا فى قلب الطريق الذى منعنا عنه.

جزء منه خال إلا من العربات الصندوقية الفارغة. وهناك، فى اليمين، ارتكز حملة البنادق. عيونهم وفوهاتهم مثبتة باتجاه المتجمهرين فى اليسار. توقف المهرولون لتوهم وتلاصقوا مصدرين تلك الزومات المكتومة التى تمرنوا عليها لبث الرعب فيمن يجرؤ على مواجهتهم. كانت ظهورهم لنا فلم نر إلا أقفيتهم وأطراف الخيزرانات والدروع.

«أنتما..»

صرخ ضابط يرتدى قميصاً أبيض ويمسك بجهاز لاسلكى وهرول

ناحيتنا.

قالت: «أبى..»

خشيتُ أن تفضح أمرنا فأكملتُ: «.. مريض.. مريض ويحتاج إلى طبيب»..

هتف بنا: «ارجعا».

استعطفته: «السكر.. أبى عنده السكر»

صاح: «قلت ارجعا».

«أبي.. إنه أبي..»

زعق: «ياعسكري».

فرجعنا إلى الطريق البازلتي.

نهنهتْ: «عام واحد ويحال إلى المعاش»، وتماسكتْ: «منذ انضم إلى ذلك الحزب وهو يقول كلاماً عجيباً». بعدها أدخلتنى من بوابة إحدى العمارات وأصعدتنى السلم هرولة: «مايقلقنى أنه مصاب بفتق إربي».

أوقفتنى أمام باب السطح المقفل: «الأطباء نصحونا بتأجيل العملية وجعلوه يمشى بحزام». ثم اقتحمت بى الباب ورحنا نشق طريقنا بين أسراب البط والدجاج ونتقافز من فوق حواجز السطوح فتحاشيتُ الاصطدام بأحبال الغسيل وهوائيات التليفزيون وقوائم إعلانات النيون المطفأة.

سطح العمارة التالية كان منخفضا. قلتُ: «هذا يكفي». لكنها اعتلتْ الحاجز وأدارت وجهها ناحيتي. لم يكن هو الوجه الحزين المرتعش الذى احتويته بكفيّ عند النافورة. مددتُ لها يدى فتشبثتْ بهما ودلَّتْ جسمها ثم قفزتْ لتسقط واقفة.

كومنا عدداً من الصفائح والحجارة واعتليناها لنتمكن من تسلق جدار العمارة التالية. عندما ارتمينا على بلاط سطحها اكتشفتُ أن ساعدها

ينشع بالدم. ربطته بمنديلي فمسحتْ على وجهي ومنحتني واحدة من ابتساماتها التي طالما أسرتني. لثمتُ كفها فسحبته واستعادت عزمها: «هيا بنا»: اندفع نحونا كلب ولاحقنا. فكرتُ. لم يمر شهران على علاقتنا، وها أنا أبدو كالتابع أو المقود

قالتْ: «لم يبق غير سطحين على ما أعتقد».

نظرتُ إلى الشارع من تحتنا ورأيتُ العربات الصندوقية أسفل منا بالتمام.

قلتُ: «ربما أكثر».

ثم عاودنا القفز.

•*•

لم يكن للسطح الأخير سور فتصالبنا ونظرنا إلى الأسفل. أول ماستريحى انتباهي لافتة الشركة التي يعمل بها أبوها. تصل بين مبنيين من طوابق ثلاثة يفصلها حوش ضاق بالعمال فارتقى بعضهم السلالم الحلزونية المفضية إلى سطحي المبنيين، واعتلى بعضهم السطحين وراح يُلّوح باتجاه السور الذي يفصل صفوف الأمن المركزي عنهم.

سمعنا هديراً فتساندنا ودلينا عيوننا إلى أقصى مانستطيع، لكننا لم نر شيئاً، فجذبتني للخلف وقالت: «تعال».

وهبطنا سلم العمارة.

•*•

من أول نافذة للسلم نظرنا فإذا به بلدوزر، أوسعوا له صفوفهم فتقدم صوب بوابة الشركة فيما تصايح العمال الذين اعتلوا السطحين وانهمك المحتشدون في تكديس كل ماتقع عليه أياديهم خلف البوابة.

صرخْتْ فجأة: «أبي.. أبي».

ومدتْ ذراعيها: «بابا.. بابا..».

هتفتُ: «أين؟.. أين؟».

ردتْ: «هاك بالبيريه الكحلي أحسست بأن هناك من ينادي علينا.

نظرتُ إلى الطريق فرأيتُ ضابطاً يرفع وجهه إلينا: «ادخل ياابن الكلب أنت وهي». فتراجعنا.

قالتْ دون أن تمد وجهاً أوذراعاً: «هناك.. ألا تراه؟ عند الفسقية المكسورة» تبينتُ الفسقية بصعوبة ولم أتبينه، فالبيريهات الكحلية كثيرة. سألتها: أى بيريه.

ويبدو أن رأسينا قد برزا من نافذة السلم إذ عاد الضابط لصراخه: «قلت ادخل ياابن الكلب أنت وهي».

عندئذ انفتح باب إحدى الشقق عن رجل مسن فى بيجامته.

قال: «تفضلا».

قالت: «أبى وراء السور.. معهم.. فى الشركة».

وأقبلت زوجة الرجل. لبستْ نظارة زرقاء سميكة وأشارت إلى الداخل: «ادخلا فى الأمان».

ورأينا أنه من الأفضل أن ندخل.

•*•

اتجهنا من فورنا إلى شيش مغلق يواجهنا. نظرنا من خصاصه فلم نر إلا خوذات ثلة من جنود الأمن المركزي. قادتنا صاحبة البيت بخطى متعثرة إلى غرفة بها سريران وباب زجاجى يُفضى إلى شرفة. أزاحتْ الستار فوقفنا أمام بانوراما عريضة تضم الشركة بعمالها والطريق بجنوده فى مشهد واحد.

قال الرجل المسن: «لم تعد الدنيا هى الدنيا».
وانصرفتْ روجته: «سأحضر لكما الشاي».
رحنا نحدق ثلاثتنا فيما أمامنا. قلتُ فى نفسى هى فرصة للتفكير فيما نحن فيه. وخمنتُ أنها ربما تبغى الاطمئنان على أبيها من قُرب، إلا أن نظرة إلى وجهها الملتاع جعلتنى أقطع بأنها لاتعرف ماتريده بالضبط. فضغطتُ على كفها القريبة منى فلم تلتفتْ. قال الرجل: «سها ابنتى فى المكتب.. بنت عاقلة تحسب لكل خطوة حسابها.. أما سماح فأمها تخشى أن تركب رأسها وترتكب حماقات مع حرس الجامعة».
هممت بتطييب خاطره، إلا أن الباب الزجاجى أخذ فى الارتجاج فيما ظهر البلدوزر مندفعاً بقوة صوب البوابة واقتحمها. تقافز العمال فوقه وأنزلو سائقه. سدوا به البوابة المحطمة، وكدسوا البراميل والأشياء الأخرى من حوله.
ظهر فى الطريق ضابط كبير تحيط به ثلة من الضباط وآخر ملتصق به يحمل مكبراً للصوت، يحركه باتجاه السور ويقول كلاماً حال الحاجز الزجاجى بيننا وبين أن نسمع منه شيئاً. جاوبه المواقفون على السطحين بسيل من الحجارة فاهتاجت الثلة وتفرقت ثم عادت لتحمى الضابط الكبيير فى تراجعه.
صرختْ فجأة: «هاهو.. أبي..»
وأمسكتْ ذقنها بيد وأشارت بالأخرى التى انتزعتها من كفي.

.*.

لم أر أباها سوى مرتين أوثلاثاً. تحاشيته أكثر من مرة، فماذا عساه أن يقول أويفعل لورآنى مع ابنته أوسمع عن علاقتنا. لكنى رأيته هذه المرة وعرفته بالبيريه الكحلى والنظارة الطبية وانضغاطة الشفتين التى يعتادها

من يستخدمون أطقم الأسنان الصناعية.

استمرتْ في صراخها: « .. حلف البلدوزر» .

قلتُ: «رأيته» .

اندفعتْ: «أبي لايفعل شيئاً غلط».

ثم سكتت وغامت عيناها: « .. لكنى لاأفهم لماذا لايتركهم ويخرج.. عنده فتق».

.*.

ظهرتْ بالطريق عربات ذوات مصابيح زرقاء دوارة وأخرى لها سلالم، وامتطتْ طوابير طويلة من جنود جدد يمشون بخطى مستقيمة واثقة. توقفوا واستداروا بمواجهة السور. فى حركة واحدة رفعوا بنادقهم إلى أعلي. سدتْ فمها بكفها: «سيقتلونه».

وجاءت المرأة بالشاي. وضعته على منضدة صغيرة وانهمكت فى تقليبه. قالتْ: «البستان ياسى محروس»، فرد عليها: «وماذا بيدى لأفعله؟».

جاورتنى والتصقت بزجاج الباب وسألت: أين هو؟.. أين أبوك ياشابة؟». لحظتها اخترق الحاجز الزجاجى صوت فرقعات مكتومة وتطايرت أجسام معدنية قاتمة وتقاطعت خطوط الدخان الأبيض والرمادي. وفيما تغيم الرؤية سقط مايشبه الكوز فى الشرفة وتدحرج أمام أعيننا. انبثق الدخان منه واندفع باتجاهنا فجفلنا وتراجعنا للوراء.

صرخ الرجل: «البطاطين ياسنية.. هاتى الخرق ياسنية.. هاتى ورق لصق».

فهمتُ أنه يريد الحيلولة بين الدخان والدخول إلينا. لكن الدخان تسرب بالفعل من عقب الباب فثقل الجو والتهب، ورحنا نعطس ونسعل. سحب الرجل والمرأة ملاءتين من السريرين غطيا بهما وجهيهما وأخذا

يسعلان. وفعلتُ ماليس منه بد. فتحتُ الباب وخرجت إلى الشرفة بركلة أسقطت القنلة إلى حيث تَقَنَّع معظم الجنود بالكمَّامات الواقية. من بين العمامات التي دكنتْ ومضتْ شرارات حمراء وتتابعت أصوات طلقات.

بعينين تحترقان لمحتُ أشباح جنود يصعدون السلالم وأجساماً تسقط تقاطعتْ أصوات ارتطام عصي وحصى وصيحات هجوم ودفاع. سقط كوز آخر فوق كتفي فزلقته إلى الأسفل فيما احتقن زوري والتهبت عيناي وأحسستُ برغبة عنيفة في التقيؤ. عدتُ وأغلقتُ الباب من ورائي وسمعتها تتكلم من خلف منديلها: «الفتق سيقتله والسكر».

وكنتُ أغالب معدتي وحرائق حلقي وأنفي وعيني حيسما أخذتني من يدي. سمعت صوتها: «أفق ياعمر».

•*•

فتحتُ عينيَّ المرهقتين بالكاد، فإذا بي خارج الشقة. وكنتُ ما أزال ممسكاً ببطني. أبعدتها عني واستدرتُ ناحية الحائط ورحتُ أتقيأ. لما توقفتُ سحبتني من يدي وهبطتْ بي السلم، فهمتُ ماتريد فتوقفتُ وسحبتُ يدي منها وألصقتُ معدتي بالدرابزين. «لست بالخيِّر الذي تظنينه». فاجأتني موجة قيء فاستدرتُ ملتاثاً. أصابني رشاش القيء وبللني عرق غزير فجلست على بسطة السلم منهكاً ودفنتُ رأسي بين ركبتي.

صرخَتْ فيّ: «جبان.. قل إنك جبان»، ثم مالتْ نحوي ورفعتْ رأسي: «أنتَ رأيته.. إنه رجل طيب لن يتحمل». وألانت من لهجتها: «لأجل خاطري». ثم مسحت على شعري بيد وأنهضتني بيد فاستسلمتُ لها، وهبطنا السلم بينما كان الغيم يصَّاعد من الأسفل.

(٢٧/٢/١٩٨٧م).

١٩٧٧

١ - شبابيك الطوابق الأرضية :

تصالبتُ وألقيت بنفسي إلى الطريق. أبخرة القنابل المسيلة للدموع ماتزال عالقة بالجو، والأهالي سجناء بيوتهم منذ الرابعة. مامن شيء يتحرك في الطريق المعتمة. مامن أحد سواي. وحدي أواجه غضبتهم وغضبة أهلي. أتحاشي الاصطدام بالمتاريس التي زرعت بكل مكان. أتسمع أصوات عرباتهم. أخشى الاصطدام بالمتاريس التي زرعت بكل مكان. أتسمع أصوات عرباتهم. أخشى أن تفاجئني إحداها . رأسي تمس شبابيك الطوابق الأرضية. مامن صوت وراء شباك خالتي فاطمة. وشبابيك بيت عم عبده محكمة القفل. هذا بيت شادية. سريرها تحت الشباك تماماً. لاشك أنها محاصرة الآن بفتيان رواياتها الغرامية.

تتعثر قدماي في مخلفات معركة الصباح . انهبد قلبي. لابد أنهم سمعوني. أجري إلى الجانب المقابل، فهو أكثر ظلمة؛ منه أدخل الحارة. أعرف تضاريس هذه الحارة بالضبط. هذا بيت وجيدة ابنة عمة أمي. وهذا بيت الدكتور عبدالرحيم أستاذ الجغرافيا. عم جمعة بائع الجرائد يفكر بالتأكيد في العناوين التي ستطلع بها صحف الصباح.

لاأثر لهم بعد. لو ظهروا فسوف تتحقق نبوءة أخي. قال: « يامجنونة. سيقبضون عليك لوخرجت ». وأبي صفعني. لم يفعلها من قبل.

صفعني وصرخ في وجهي وشدني من شعري وهوى على كل مكان في جسمي بالخيزرانة. « لسنا مسئولين عن الكون.. لاشأن لنا بشيء.. مادا

سأقول لهم؟.. ماهو موقفى من الجامعة؟».

دكانة عم بشير موصدة. هذا يعنى أن بيت حمدى قد اقترب. أمام الدكانة بركة ماء مزدحمة بالحجارة والأخشاب وقواعد ورقاب الزجاجات المهشمة. هذا يعنى أنهم وصلوا إلى هنا. صرخ أبي: «أمسكها ياهشام قبل أن تهرب.. أمسكها».

لولا بحة صوتى ماكتشف أبى أنى كنت معهم. وماعترفتُ له بأنى كنت مع الهاتفين. تبينتُ نافذة حمدي. مامن بصيص يدل على يقظة من بداخل البيت. نقرتُ على الخشب. حمدى نائم. عاودت النقر. هذه ميزة الطوابق الأرضية. هممستُ: «حمدي.». ونقرتُ: «حمدي». سكون الحارة والبيوت يضخم همسي، وضوء القمر يضاعف من خوفي. «أى شيء قادنى إليك ياحمدى الآن؟.. أنت هنا أم أسقطوك فى واحدة من عرباتهم؟». أنقل عينى بين طرفى الحارة. قد يظهرون ياحمدى فافتح». ألمح صورة الكبير ممزقة أسفل الشباك. أحدهم انتزعها من الحائط ورماها. ربما كان حمدي. كورتها بيدى وعدوت بها إلى بركة الماء. رميتها فيها وعدتُ. قد يرونها فيضرون حمدي.

طرقت الشباك: «حمدى .. حمدى ..» .. سمعتُ صوتاً .. إنه صوته: «من ؟» . «أنا» . «أنتِ ؟!» . «نعم .. افتح».

وأطلّ عليّ حمدى بعدما فتح الشيش . شعره الغزير الذى طالما داعبته مختف وراء أربطة الشاش ، فتحتا أنفه يحشوهما القطن ، عيناه يخفيهما التورم ، وأشرطة البلاستر تتقاطع أسفل ذقنه.

قال : «ماذا تريدين؟ .. ماذا جاء بك ؟ .. أين حذركِ؟»

طفتُ بعينى فوق وجهه : «حمدى»

سأل : «.. اقتحموا بيتك؟»

همستُ: «أنت بخير.. هذا أمر طيب».

هتف: «هناك شيء حدث لك بالتأكيد».

غمغمتُ: «أبى ضربني».

حمدى أقوى من هشام وأقوى من أبي. لكنه دائماً يلتمس لهما الأعذار. أكثر من هذا يحبهما.

قال: «لن يدوم هذا طويلاً»، وأمسكنى من كتفي: «ادخلى أو ارجعي.. سيمرون الآن». قلتُ: «سأعود وإلا جُنت أمي».

همس: «خذى حذرك ياهدي..»، ودس أصابعه فى شعري، فأغمضت عينى للحظة وقلت لنفسى لعله سيقبلني. لكنه لم يفعل. تمالكتُ وقلتُ: «لا أخشاهم».

وبالرغم من هذا فقد خلعتُ حذائى لكى أُسرع. وقبل انعطافى إلى الطريق الرئيسى نظرتُ خلفى فرأيتُ أشباحهم تتماوج عند رأس الحارة. ولأن شباك حمدى كان مغلقاً فقد ساورنى قدر من الاطمئنان.

٢ - في الميدان:

نزعتُ عواطفى وألقيتُ بها بين الحجارة والعصى وفوارغ القنابل المسيلة للدموع، ثم سحبتُ الجثة التى ارتمت فوقى أسفل الكوبري، وتقافزتُ بعكس اتجاه الجموع المتراجعة، صيحاتى الداخلية ترجنى «إنه الصراع الأبدي.. إنه التدمير اليومي.. إنها المطاردة». التحمتُ معهم. سحبتُ عصى بعضهم. ضربونى وضربتهم. كدتُ أسقط فى جوف واحدة من عرباتهم، لولا مئات الأذرع التى رأيتها تحيط بى وتسبقني. تقذف وتضرب وتنزع العصى والدروع والخوذات. أذرع منها شدتنى للوراء. رأيت فتيات يضربن بكتبهن وحقائبهن ويجرين. ربما كانت هدى أختى بينهن. رنَّ صوت معدنى «انسحاب.. انسحاب» فتقهقرتْ الخوذات والعصي، لتبرز تلك العربة الحمراء ويمتد منها خرطومان. اندفع الماء قوياً

غليظا فوق أجسامنا، فتناثرنا فى الميدان، وتزاحمنا وراء أعمدة الكوبري. وإذ نرتب أنفاسنا ونسحب المتساقطين منا، هرولتْ جماعة منا زاعقة بزومات لا تفهم، لكنها مخيفة، وأخذت تتقافز بين الأسفلت وأفاريز الجزر التى تقطع الميدان. لم يكونوا مسلحين بغير الحجارة والزومات، مع هذا فقد استولوا على العربة الحمراء. وثبتُ إليهم ورفعتُ أحد الخرطومين وتقدمنا تجاههم. جعلنى الكر والفر فى المقدمة. أمسكُ بنحاسة الخرطوم وأقاوم باستماته ضغط الماء، محاذراً أن تضعف سيطرتى عليه، فأغرق الواقفين معي.

لم أكن فى الأصل مشاركاً. أبى هو الذى ورطني. خرجتُ من البيت أبحث عنه لما تأخر. إلى الميدان قادتنى الجموع وشُلَّتْ حركتي. لم أتوقع أن تهدر هذه المنطقة هكذا. الليل كان فى الغطيس والمصابيح إما مهشمة أو مطفأة. فى البداية كانت هدي. ثم هاهو أبى يضيع منا هو الآخر. ماذا تبقى لأمى كى تعيش؟ حظر التجول من الرابعة مساء إلى السادسة صباحاً، وخوف امى يضخم لها الأشياء ويقتلها كل دقيقة. أختى على حق «لايحرك هذه الجموع سوى ضغط شديد».

دفعوا بفتاة إلى صندوق إحدى العربات فتعرَّتْ ساقاها وظهرتْ ملابسها الداخلية. كأنى كنتُ محتاجاً لجثة تسقط فوقي. يهرولون من أمامنا. يتساقطون ويجرون نحو مداخل الميدان. مازلتُ أمسك بنحاسة الخرطوم، وأجاهد اندفاقة الماء التى أسقطتنى أكثر من مرة. بعضهم يتوقف رافعاً يديه وصوته طالباً منا الرحمة. نأخذ هراواتهم ودروعهم ونتركهم فيتكومون مضعضعين فوق الأرصفة أو يطلقون سيقانهم فى الاتجاه المضاد.

ارتفعت السارينات. عربات بيضاء ومصابيح زرقاء دوارة. انفجر إطار إحداها وتهشم أكثر من زجاج. باضطراب أخلوا الميدان إلا من الحطام.

بعضنا هلل ولوح بما فى يده. لكنهم فاجاونا بموجات من حاملى البنادق تدفقت علينا من ذات المداخل. من خلفهم رأينا عرباتهم وهى تلقى القواطع الحديدية فيلتقطها آخرون ويسدون بها أنهر الطرق. هده إذن هى نية كبيرهم. تصالبنا ووقفنا. قذفناهم بالحجارة وهتفنا . لكن عندما دمدم الرصاص تناثرنا فى الميدان ولم نتكاثف تحت الكوبري، فقد كان شغل كل منا الشاغل هو تأخير سقوطه إلى آخر وقت. فى انسحابنا رحنا ننحنى على الحجارة، نلقيهم بها أو نحشوا بها جيوبنا.

٣ - العصا:

أجلسونى على الأرض وأمرنى أحدهم بأن أنزع حذائى وجوربي. هم خمسة. متعبون مثلي. ومثلى يحتمون وراء شيء يبرز المهانة ويضخم منها. هم وراء ملابسهم، وأنا وراء شيبتى وشهاداتي. لكن ملابسهم بدت أكثر منعة.

عاد الرجل الذى أدخلنى إلى الباب الذى أغلقه واستند إليه بظهره. كأنما يُحكم إغلاقه، أوليوحى إليّ بأن الحصار المضروب حولى كثيف إلى الدرجة التى لاينفع فيه مجرد التفكير فى المقاومة.

لم أخف، لكننى أُخذتُ، فالأمر واضح ومرعب. اداروني بقوة إلى الاتجاه المقابل، حيث جلس الشاب ذو الكاب لتوه. من فوقه يُطل الكبير. عن يمينه ويساره شباكان حطمتهما مظاهرات النهار. أومأ الشاب فاتجه أحدهم إلى الحائط ونزع عصا يربط جانبيها حبل غليظ. إذن فهذه هى آلتهم العتيقة. البعبع الذى طالما أخافونى به وأنا صغير. ماأكثر ماهددت أولادى به لأؤدبهم دون أن أراه ولو لمرة واحدة. هاهو الآن يتقدم منى ويتلمظ. يهزأ من دعاوى العلم وألقابه والشهادات التى حورتْ تلافيف عقلي.

هجستُ: «في عصر المكوك والمارنير والسكاي لاب والفوستك، مازالوا يستخدمون أدوات منقرضة؟». ورثوتُ لهم كما رثوتُ لنفسي «ليتني ماضربتك ياهدي».

أومأ الشاب ذو الكاب فمال اثنان على قدمي. لفا الحبل بغير ماجهد يُذكر. كل مافعلاه أنهما أدارا العصا لأعلى فارتفعت قدماي معها وأصبح ظهري ورأسي في حذاء بلاطات الأرضية.

تجسد أمام عيني كم المهانة التي أنا مقبل عليها، فرفعتُ إصبعي، كما يفعل تلاميذي، طالباً الكلام. قال ذو الكاب: «أعرف ماستقول.. خرجت لتشتري شيئاً فالتقطك رجالي» غمغمتُ: «لا .. إنها ابنتي». «حكاية جديدة؟». «خرجت أبحث عنها». «تبحث عنها؟ .. كانت في المظاهرات إذن». «لا .. لا .. كانت تشتري شيئاً». نفخ بتبرم: «عدنا؟»، وأومأ لأحدهم فالتقط من فوق المكتب خيزرانة وانهمر على قدميّ ضرباً. من بين الألم قلت لنفسي «هؤلاء قوم لاينفع معهم إلا التصالب».

أوقف ذو الكاب الضرب وأشار إليهم أن يوقفوني فأوقفوني والحبل والعصا يعصران قدمي. تقدم مني وتفرس في وجهي: «أنت لم تبك». قلت «أنا رجل كبير». هتف «ها .. أنت إذن تنافسه»، والتفت إلى الإطار الذي يعلوه، فزعقتُ: «لاأقصد»، فضحك وبصقها في وجهي: «جبناء». ثم أمرهم فطرحوني أرضاً وعادوا لضربي من جديد، فندمتُ على فزعي، وصممتُ على عدم البكاء. ٢٠/١/١٩٧٨م.

عن قصص هذه المجموعة

لما لم يكن متاحاً نشر قصص هذه المجموعة وقت كتابتها فى العقد السبعينى من هذا القرن ، فقدتم تداولها فى مجتمع الأدباء وهى بعد فى صورتها الخطية، ثم أمكن نشر بعضها بطريقة الماستر، وعبر عدد من الدوريات المصرية والعربية . فى الثمانينيات والتسعينيات .

المؤلم المبهج، فى ذات الوقت، أن شروط تلقى هذه القصص ماتزال قائمة والألفية الثالثة تطرق على البشرية أبواب غفلتها .

[ثبت بما نُشر من قصص هذه المجموعة]

قصص نُشرتْ بطريقة الماستر :

١ – نشيد الفقراء ١٩٨١م.

٢ – !!! ١٩٨١م.

٣ – الضحك ١٩٨١م.

٤ – السبب ١٩٨١م.

٥ – العوامة ١٩٨٢ م.

٦ – حكاية تُروى ١٩٨١م.

قصص نشرت بالدوريات المصرية العربية:

١ – الضحك : (أ) مرآة الأمة، الكويت، العدد ٤٥٣ ، السنة العاشرة، ٢٣ يوليو ١٩٨٠م.

(ب) اليسار العربي، باريس، العدد ٤٣، مايو ١٩٨٢م.

٢ – القصور : الثقافة، بغداد، العدد الخامس، مايو [مايس/آيار] ١٩٧٦م.

٣ – مشاهد من حالة يقال انها خاصة جداً: الأحرار، القاهرة، ١٩ أغسطس ١٩٩٤م.

٤ – حكاية رجل عصبى : الأهالي، القاهرة، ١٥ يونية ١٩٩٤م .

٥ – حكاية العم شعلان : أدب ونقد ، القاهرة ، فبراير ١٩٩٩ .

٦ – ريم انفجر عن آهة : الزمان ، القاهرة ، العدد ١٦ ، ١٨ مايو ١٩٩٩ .

٧– فتق إربي : الثقافة الجديدة، القاهرة ، العدد ١٨، مارس ١٩٩٠م.

٨ – ١٩٧٧ : أدب ونقد، القاهرة، مارس ١٩٩٣.

الفهرس

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحد	عبده خال
صعيدي صح	د عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس ابوليوس ترجمة د علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوي
كوميديا الانسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق	البيـاتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيـا تنادينـا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر، النجوم، العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
حواديت لفندي	عصام خميس
سيرة الماء	د. علاء عبد الهادي
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوي
إذهب قبل أن أبكي	د. لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
ونس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د. أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعاني في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشي
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب: نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
البواكير في القصة القصيرة	شوقي عبد الحميد
رحلة الكلمات	د. علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د. علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية	د. غبريال وهبة
زمن الرواية: صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديري
الرواية العربية: رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

المؤلف

قاسم مسعد عليوه

صدر له :

- أنشودتان للحرب	مسرحيتان	١٩٧٢
- الضحك	قصص قصيرة	١٩٨١
- تنويعات بحرية	قصص قصيرة	١٩٨٢
- صخرة التأمل	قصص قصيرة	١٩٨٩
- حدود الاستطاعة	قصص قصيرة	١٩٨٩
- غير المألوف	قصص قصيرة	١٩٩٥
- خبرات أنثوية	قصص قصيرة	١٩٩٨
- لاتبحثوا عن عنوان إنها الحرب .. إنها الحرب	قصص قصيرة	١٩٩٩

تحت الطبع :

- الديدامونى	مسرحية
- حكايات عن البحر والولد الفقير	قصص قصيرة



أى لحن تعزف

سيدى الوطن ..

ولم يبق فى معزفك

سوى وتر وحيد ..

وتر وحيد مشدود ..

منه ينبعث النغم ..

لكنه - ياويلتاه -

مهدد بالبلى ..



